حتى مطلع الفجر

بقلم

سوسن الشريف

الرواية فازت بجائزة إحسان عبد القدوس للرواية لهذا العام ٢٠١٩-٢٠٢٠

أيًا كان موقعك من هذه الكلمات، قارئًا أو مشاركًا في الأحداث، عدني ألا تغضب، وإن غضبت حاول أن تُعيد القراءة بعقلك بجانب عواطفك، تَفكرّ فيها قليلًا..

كن أمينًا مع ذاتك أولًا .. ثم قرر مقدار غضبك

واجعل هذا سرك الخاص، لن يطلع عليه أحد من الكائنات في كل العوالم ما عداك، ضعه بداخلك، تراه كلما نظرت في المرآة ...

أبي الكبير يوزع ميراثه مرتين

مرة قبل الفجر ومرة عند بزوغه

في المرة الأولى يمنح أبناءه تركة متساوية في المقدار مختلفة في النوع

قد يمنحك ما لا ترغب .. ويمنع عنك أكثر ما ترغب

أو يوقد بداخلك رغبة لما لا تملك

فتصير هي شغلك الشاغل

سيسألنا الله عن الحب الذى وضعناه في أعمالنا

أشكو إليك العصافير، فإنها تأكل زرعي قبل فرحي به، مازال نبتات خضراء تشق طريقها للضوء كفتيات صغيرات يلهون ويفتحن أعينهن الصغيرة للحياة، تأتي مخلوقات عملاقة تلتهمها في فرح، غير أبهة بمعاناتها ومعاناتي. نعم هذا رزقها، وقد جعلتني سببًا في ذلك الرزق، لكن قلبي يؤلمني برؤية زرعي وقد تقطعت أوصاله وتفرقت بين جنبات الأرض. لم يعد لي سواه، أزرع في شرفتي الصغيرة بذور الخضروات، بجوار الريحان والنعناع والحبق. أحببته أكثر من شتلات الورد الجاهزة المزهرة، فما أجمل من أن يتحول لون التربة الأسود إلى زغيبات خضراء تقول هنا توجد حياة.

عندما ستراني، ستتعرف عليّ، ستعرف أنني ممن يقولون عليها "ابنة أبيها"، وابنة أمها كذلك، هكذا يقول لي الأقارب "أنتِ تذكرينا بأمك"، ليس لأنني أكثر إخوتي قربًا في الشبه منها، لكن ربما لأنني ما زلت محتفظة بها بداخلي، حياتي هي حياتها، مهما بدت مغايرة لما كانت عليه وقتها، لكنها تشبه روحها، وما أنبتته بداخلي يثمر الآن.

توقف بي الزمن على عتبات منزلنا القديم، بشرفته الضيقة، التي لطالما جمعتنا في الخامسة عصرًا من كل يوم، ملتفين حول "شاي العصاري"، وإذاعة أم كلثوم. ننتظر قدوم الهدهد يزور المساحة الفارغة الصغيرة أمام منزلنا بين هذه العمارة القديمة الشاهقة، والعمارات الأخرى المساوية لعمر عمارتنا، وينتظرنا هو الآخر، ربما ليستمع إلى صوت أم كلثوم، أو ليتسلى بضحكات لعبنا الصغيرة، وربما لينالة حظ من فتات ما تخبزه أمي في ذلك اليوم.

حياتنا تبدو عادية، الجميع يلتف حولنا، والدي عمود العائلة بجميع أصولها وفروعها، ومركز الاهتمام من وبالآخرين، ليس لأنه أكثرهم ثروة، فحالنا جيد، إنما لدينا ثروات أكثر من المال، تلك التي تضفي عليك مظهر ثراء فاحش في نظر الآخرين، يحاول البعض مجاراته بالأموال، لكنه يفشل في كل مرة. عندما تكون ابن كبير العائلة مقامًا وليس سنًا، ستدرك جيدًا ما أقول وأصف، ذلك الكبير بوجوده كل وقت وأي وقت للجميع، يفعل أكثر مما يتحدث، يمكنه اقراضك كل ما تريد من النقود في الوقت الذي لا يمتلك فيه شيئًا، أو يقف معك في محنتك التي لا يعرف عنها أحد، ولن يعرفها. ولم تكن أمي تعترض مهما بذل والدي من جهد ووقت ومال، ربما لأنها تعودت ألا تشتكي غياب أيًا من هذه الأشياء، ما دام والدي يعود إليها في

آخر اليوم قويًا منتصرًا على محنه الصغيرة، منهك القوى من الداخل بسبب همه الأكبر وحمله الثقيل، يجدها قد ملأت المنزل بالطعام والشراب الطيب، ودفء في عز البرد، أو ظل شجرة ونسمات رطبة زكية الرائحة مثلها في موجات الحر الحارقة. نلتف جميعًا حول المائدة، نشكر الله بابتسامة امتنان ورضا، دون أن ندري وقتها أن هذا هو الرضا، نوعًا فريدًا من الحمد والشكر لله على نعمه التي جهلنا حينها مدى عظمتها وقدرها.

كان والدي يقول لنا دائمًا "لا أعرف من أين كانت أمكم تملأ المنزل بكل هذه الخيرات، ولم أكن أترك لها في بداية اليوم قبل خروجي للعمل سوى بضعة جنيهات تكاد تكفي بعض الخبز، أعود وقت الغذاء لأجدها قد حضرت وجبة شهية من خضروات وأرز ولحم أو دجاج وفاكهة، لم تشعرني يومًا أنني مُقصر أو أنها لن تجد ما تطعمكم إياه". حقًا كانت أمي تعرف جيدًا كيف تسد جوع أربعة صغار، تصنع وجبات مُشبعة ولذيذة، عندما كنا نشتهي الحلوى، تأتي بأرغفة الخبز الأفرنجي الجافة، وتقليها في زيت الطعام، ثم تضعها ساخنة في شراب السكر البارد مع قليل من القرفة والفانيليا، تعود طرية غضة طازجة زكية الطعم والرائحة. عندما كبرت علمت أن هذه نوع من الحلوى الفرنسية، بالطبع لم تكن تعلم أنها تصنع حلوى فرنسية، فقط كانت تطعم صغارها بما تيسر لديها من طعام جاف وبائت. في الليل عندما نشعر بالجوع، تضع قليلًا من الأرز على كثير من حبوب الفول الأخضر والطماطم والبصل، وتطهيهم جيدًا، مع خلطتها السحرية الخاصة بروحها الطيبة، فتملأ رائحة الطعام المنزل، نأكل ونشبع ونفرح، نتناول هذه الوجبة الساخنة، وبعدها حبات من البرتقال في ليل الشتاء البارد، منتهى السعادة وقتها أن نكون معًا، لنتشارك هذه الطيبات مما رزقنا الله.

أحضرت أمي معها من بلدها الريفي رائحة الصباح المحملة بدخان الخبز الطازج الساخن، كانت في صباح كل جمعة تطهو لنا الفطير والرقاق، لا أحد يعلم كيف تنجح وصفاتها في الفرن الصغير الإفرنجي، تلك التي لا يمكن أن تصح إلا في فرن من الحطب والنار المتأججة.

أليس غريبًا أن ترتبط كل حكاياتي عن أمي بالطعام؟!!

ربما الأمر يرتبط بالحكمة فيما وراء الطعام، والحب الذي تضعه ووالدي في أركان المنزل، وقدراتها الخفية التي تظهر في أكثر وأمس حاجات أطفالها الصغار، وما تحمله هذه الحاجة الأساسية في حياتنا من قدرة على البقاء، ما وضعته في وجبة فول وأرز من قيم مازالت تعيش بداخلنا، كالامتنان والشبع. هذا الشبع الذي سيظل ملازمًا لك طوال حياتك في كل شيء، في العاطفة، في المال، في التعاطي مع هذه الحياة

المتوحشة، التي ما تلبث أن تغريك بما ليس لديك، إلا لو بداخلك يشعر بالشبع، ستضمن تحقيق بعض الانتصارات عليها.

من أين تأتين بكل العطور المثيرة للحنين والاشتياق ولم تطأ قدمك الطريق
حمرة وجناتك من لهيب نار الخبيز
شعرك بلون كفوف الحنة
سابل جدائله على ظهرك

كانت تُجيد صنع رائحة الصباح، بشعرها المغسول بالندى، تحمل بين طيات جلبابها رائحة الفجر الملون بالضباب، ودخان الحطب المشتعل في الفرن، برائحة العجين موسوم بأصابعها، واللبن الطازج. بصوتها الخافت مترنمًا بتسابيح الصلاة، بحفيف ثوبها ينثر الدفء أينما حلت، تضمك إلى صدرها مع كل شروق بنفس الابتسامة الفرحة، كأنك عدت لتوك من السفر.

كانت تصنع لنا الظل في المنزل، تتبع مسار الشمس من الشروق للغروب، فتوارب دفتي ذلك الشباك عند الظهيرة، لتتسرب منه نسمات باردة طيبة في عز الحر، يمتلئ المكان بطيفها الحاضر دومًا، ينثر عطرها المخضب برائحة الصباح. تشدُ علينا الغطاء في الليالي الباردة، وذروة الحرارة، ومهما ثقل الغطاء أو خف، فلا يمنح الدفء والنسمات الرطبة الندية سوى يدها الضعيفة، التي خط عليها الزمن أيامه بدقة وقسوة، فزادتها طيبة وحنان وقوة. تلازم يدها قطعة قماش، لا تقربها ذرات التراب، ما أن تغمرها بالماء، يمسها قوس قزح بألوانه، تفرقها على كل من في المنزل، وأخر النهار يعود بريقها الأبيض.

يكون من نصيبي بوادر الخبز، رغيف تكتب عليه اسمي، وقالت لي "ده بختك وشبهك"، مُقسمًا على هيئة عروس، أحمرًا منيرًا كوجه الصبايا، ساخنًا بما يكفي ليدفئ برودة الفجر.

ينتظرها الصباح كل يوم ليتعطر برائحتها، وانتظرها لتصنع لي عُرسَ يومي بكسرة خبز

الساعة قاربت على الخامسة
موعد الشاي والراديو والكيك أو الكعك والبسكويت
بعد الخامسة بحوالي خمس عشرة دقيقة يأتي الهدهد وزوجته لابد أن لهم بيتًا صغيرًا قريبًا من هنا
كيف عرفت ابنة الريف أن الخامسة موعد مقدس للشاي رغم إنها عادة انجليزية
كيف استطاعت أن تجمعنا كلنا في رحب هذه الشرفة الصغيرة
هل اتسعت بمقدار قلبها المتمرد المتطلع للحب
ها أنا قد اعددت الشاي والبسكويت وأصلحت الراديو
لم يعد الهدهد يأتي والشرفة لا تكاد تتسع لفرد واحد
ومازالت أنتظر ..

تلك الذكريات التي تصنعها مع أبنائك هي الجسر الذي سيعبرونه إليك يومًا ما، فماذا صنعت؟!!

عوالم أخرى

بدأت كل الحكايات عند وفاة أمي، أو لعلها انتهت لا أعلم بالتحديد، لكن كل شيء تغير فجأة، كأنك سقطت من الدور الأخير في عوالم أخرى، تحملك أمواجها بقوة وضراوة، تتخللها هدن قصيرة بعض الأوقات.

وجد والدي نفسه وحيدًا، أرملًا، صفة جديدة لا يعلم ماذا يفعل بها، في جعبته أربعة أبناء، في حاجة لأشياء كثيرة بجانب النقود، لكن ما يتعلمه الرجال في العالم الشرقي، والعربي تحديدًا لا يخرج عن العمل وجمع النقود، هذا ما وجدوا عليه آباءهم. لا يعلمون شيئًا عن تعليم أطفالهم إلا صحيفة الدرجات في أخر كل شهر بلون الحبر الأزرق، وتكون الكارثة لو زينت بدوائر حمراء، علامة الخطر، ولا يتم التعامل مع هذا الأمر بالحكمة والتفكر، بل في الغالب بالتوبيخ الحاد الذي يصل لحد العقاب الشديد.

أذكر أن أختي الكبرى ظلت تخفق في درجات اللغة الإنجليزية لشهورٍ عدة، صاحبها كل أنواع العقاب بدرجاته، إلى أن جاء التهديد الأخير بتركها المدرسة والجلوس في المنزل كقطعة أثاث. كانت تبكي كثيرًا، قائلة إنها لا ترى بوضوح في الفصل المدرسي لجلوسها في الصفوف الأخيرة. انتبهت أمي وقتها لهذا العذر الذي لم يجده والدي حقيقيًا، إلى أن استمع لرأي أمي وذهب وأختي لطبيب العيون، وسجلت وقتها درجات للرؤية أقل من درجات الامتحان لحد الإخفاق التام، ولعل هذه العلامات الحمراء على صحيفة المدرسة بكل ما صاحبها من عقابات كان ضروريًا لإنقاذ نظرها، وإن خلف لديها ذكرى لا تنساها طوال حياتها إلى أن تضاعفت سنوات عمرها ثلاث مرات من وقت تلك التقديرات.

لم تفلح السنوات في إصلاح علاقة أختي باللغة الإنجليزية، إذ أن والدي بعدما نظر لإخفاقها بتأني، وحل المشكلة الأكبر المتعلقة بضعف نظرها، قرر أن يرفع مستواها، فلجأ إلى درسٍ خاص مستعينًا بأحد الأقارب. رجل كبير في السن كان يعمل مدرسًا للّغة الانجليزية والفرنسية، وصار متقاعدًا بعد وصوله للمعاش، يا له من اختيار موفق.. وافق قريبنا على ضم أختي مع قريبة لنا أخرى في الدرس الخاص، كان كريمًا حد التطرف في كل شيء، لم يستطع التفرقة في مشاعره تجاه الفتاتين، إحداهما تحفظ بجدارة وتعجز عن التفكير، والأخرى لا يأخذ الحفظ منها ذات المأخذ، وتفضل الفهم أولا ثم الحفظ. تعقدت العلاقة أكثر، صارت أختي تتلقى مزيدًا من اللوم والتأنيب من قريبنا لضعف مستواها العائد بالأساس لسوء المعاملة نتيجة ضعف قدرتها على الحفظ، لكن أصبحت درجاتها أفضل قليلًا بما يكفي

للسير على حافة هوية النجاح، والتأرجح بينه وبين الاخفاق، دارت معارك جديدة في المنزل حول رفضها الاستمرار في الدرس الخاص، مقابل إصرار أبي. أختي كان لديها قدر غريب من العند والتمرد، غريبًا على ذلك الزمن بالنسبة لنا ولتربيتنا التي تقوم على نظرة من أمي لنرتبك، وننشغل بما اخطأنا فيه لنستحق هذه النظرة، ونظل في هذا التخبط إلى إخبارنا بعد أن يحين الوقت لنكن بمفردنا معها، وعندما يتطلب الأمر دخول والدي، فهذا يعني أن ثمة كارثة وقعت. كالعادة لا يستمع الوالدان لشكوى الأبناء، ويستجبن للكبار، فكانت شكوى أختي مقابل شكوى قريبنا، بأنها غير مطيعة ومتعبة وكثيرة السؤال والشعور بالملل أثناء شرح الدرس، إلى أن حانت الفرصة لتنقذها أمي، ليس استجابة لها، بل عندما تضايقت من كثرة الحديث بسوء عن ابنتها الكبرى. بقلب وعقل وحكمة الامهات اللاتي تولد بداخلهن مع لحظة ميلاد أول أطفالهن، ربطت بين الأحاديث المتناثرة، واستمعت لأختي دون عاطفة مسبقة سوى الأمومة، وأدركت ما يقع على ابنتها من عبء، ولم تتحمل سماع مزيد من أية كلمات تطالها. كانت طوق النجاة الذي وصل لأبي ليساعده على اتخاذ قرار إنقاذ أختي والتوقف عن الدرس، مع الحفاظ على علاقة جيدة بعيدة مع قريبنا المسن.

لم أنج أنا الأخرى من ذلك الأمر في مادة الحساب، التي مازالت معضلة وتحديًا مستحيلًا بالنسبة إلي حتى الآن، فالنجاح في جمع ثلاثة أرقام معًا دون خطأ يقع في خانة الانتصارات، كل تجاربي مع هذه المادة في المدرسة شكلت مأساة كاملة، لم يكن لي يومًا ميل نحو الأرقام. في المرحلة الابتدائية عندما ظهر ضعف مستواي، استجاب أبي وأمي لنصائح المدرسين، وبالفعل اتفق أبي مع شخص لا أذكر من أين تعرف عليه، أذكر اسمه ولا أنساه أبدًا "الأستاذ صلاح"، حيث كان من الذين تسببوا ليس فقط في إخفاقي بشدة، لكن في تعرضي لحالات عقاب شديدة ومستمرة من والدي. كان العام الدراسي شارف على الانتهاء ولم يتحسن مستواي، بل على العكس ساء أكثر، ولم يفلح العقاب ولا شكوى الاستاذ المستمرة مني ومن تخلفي العقلي وغبائي في إتمام أي اختبار ولو صغير بنجاح. إلى أن طلب والدي من أختي الكبرى بحزم أن تساعدني، قامت وهي متضررة بأداء هذه المهمة التي لم يكن لها بها دخل، فمالها هي أن تتحمل مسئولية وهي في حاجة لمن يتحمل مسئوليتها. كنتُ دائمة الشكوى من أن الاستاذ يعلمني أشياء غير التي ندرسها في المدرسة، ولا أعرف أيًا مما أدرس أجيب به في الاختبارات، بالطبع كانت الإجابة أن أتبع تعاليم الأستاذ، أقل ما في الأمر نستفيد بما يأخذه من مبالغ شهرية مثلت عبئًا على أسرتنا ذلك الوقت، فكنت أطيع الأوامر، وهي عادة أجيدها منذ الصغر، بل هي نهج حياتي ولا أعرف غيرها، وتحديدًا مع والداي.

نظرت أختي في كتبي المدرسية وكراسات الدرس، وصاحت بأعلى صوتها دهشة وتعجبًا من كل الكلمات والخطوط والرسومات التي تلوثت بها الكتب بكل ألوان الحبر الأحمر والأزرق والأخضر، وسألتني وهي تصرخ كيف ألوث وأشوه كتبي هكذا؟؟ اجبتها بأن الاستاذ هو من فعل. ثم أخذت تقلب الصفحات ليعلو صوتها ثانية "من رسم لك الجهاز الهضمي والتنفسي والقلب بهذا الشكل ده كله غلط"، أجبت "الاستاذ"، وسألتني "كنتي بتكتبي الكلام ده والرسم ده في الامتحانات؟"، عندما أجبت بنعم، قالت "ما لازم تسقطي طبعا، كل ده غلط في غلط"، أخيرًا تخلى والدي عن المدرس بعد ما علم أنه ضيع عامًا كاملًا يدرس لي أشياء خطأ. لم يمر وقت طويل إلى أن وقع والدي في ذات الفخ عندما وصلت للمرحلة الإعدادية، إذ في محاولة منه لعلاج ضعفي في مادة الحساب تعاقد مع المدرس الأول للمادة في مدرستي، حاولت إقناعه بكل الطرق أن كون المدرس يحمل لقب "الأول" ليس له علاقة بمهارته، بل هي درجة وظيفية ليس أكثر. وقد حدث أن هذا العام كان الوحيد الذي يدرس لنا في الفصل مدرس جيد، بالطبع فشلت محاولاتي مع أبي، ولم يقتنع إلا برؤية علاماتي تتدهور لحد السقوط والفشل، مع ملازمة ذلك بالطبع لأشد أنواع العقاب، هكذا كُتب على مستقبلي في هذه المادة الفشل الذريع، بجانب عدم استعدادي الشخصي لها. عندما وصلت لبداية المرحلة الثانوية، درس لنا مدرس فاسد بكل معنى للكلمة، فلكي تحصل الفصول التي يدرس لها على درجات مرتفعة، كان يدخل في الامتحانات خلسة، ويكتب لنا الحلول على السبورة، وهذا بالطبع في تلك التي لا يصححها بنفسه. كانت النهاية مع مادة الحساب في العام الأخير من الثانوية العامة، ولقد فتن أحد مدرسي المادة المدرسة بأكملها، وكانت مدرسة بنات فقط، حيث يفصلون البنات عن الأولاد في كل المدارس تقريبًا ولا سيما الحكومي منها بداية من المرحلة الإعدادية، فكامل الدفعة وقتها أخذت دروس خاصة مع هذا المدرس. وجاء وقت النتيجة التي تحدد مستقبل كل منا، وتعالت الصراخات من كل حدب وجدب، فقد أخفقنا جميعًا إما بالسقوط أو بالدرجات الضئيلة للغاية، وكل هذا بسبب ضعف درجات مادة الحساب، مما دفع المدرس للتقدم بالاستقالة من المدرسة. أما أنا فحصلت على درجة النجاح، والتي لم تصل للنصف، عديت المرحلة بمجموع ضعيف لم يقابل طموحاتي وقتها في اللحاق بكلية الألسن، لحبي الشديد للغة الإنجليزية بخلاف أختي الكبرى.

وفاة أمي كانت بمثابة تمزق الخيط الرقيق القوي الذي يربط الكل ببعضه كحبات المِسبحة، ما انحل حتى انفرطت الحبات، وصارت كل حبة بمفردها. لم يعد يعرف أيا منا ماذا يفعل، كعادة الأمهات يحملن المنزل في صدورهن كيكس نقود ممتلئ بكل ما هو ضروري للحياة، يستمد الدفء والتماسك من

أضلعهن الرقيقة الهشة، اللاتي خلقن من ضلعٍ أعوج، حتى ذلك الضلع الأعوج لا يعرف كيف تستقيم الحياة بدون النساء.

رحيل أمي كان متوقعًا، وتحديدًا لوالدي، فقد بدأ المرض يلتهم جسدها من قبل الرحيل بسنوات، وبالفعل استغنت عن جزء منه بغرض الشفاء، إلا أنه عاد بضراوة مهاجمًا إياها بما لا يدع مجالًا للنجاة. صاحبها والدي بكل صمت وصبر في هذه الأيام القاسية عليهما، لم يبح لأحدٍ بالحمل الذي يحمله وحده، حاول أن يكون عامها الأخير كما رغبت طوال حياتها، ذهب بها إلى كل أماكن الترفيه التي لطالما تمنت زيارتها في وقت لم تسع الأحوال والظروف أمنياتها. وعندما تيسرت النقود، وصارت الأماكن متاحة، لم تكن هي متاحة، لم تستطع أو تعرف كيف تستمتع والآلام تحاصرها من كل جانب، وتفقدها الشعور بما حولها.

بدأت مرحلة جديدة من المسئولية والعبء على والدي تجاه أطفاله، ولم يكن قد تعافي من المشوار الطويل لمرض أمي. انشغل واختي الكبرى في كارثة الموت، ومواجهة لأول مرة مع المسئولية بكل معانيها، فأمي كانت مثل كل أم تحمل المنزل بين حنايا ضلوعها، بينما الوالد منهمك ومنهك من أعباء الحياة، وأختي الكبرى التي كانت تحب تدليل نفسها، صارت أمًا رغمًا عنها، دور رفضته بعنف بداخلها، وإن بدت متقبلة الأمر. حملت هي العبء الأكبر في البداية، إلى أن استطعت استجماع قواي من الصدمة، لم أشف، لكنني حاولت التماسك، وقد طلب والدي مشاركته إياها. تزوجت أختي الكبرى بعد رحيل أمي بخمس سنوات، كنت قد أنهيت فيها دراستي الجامعية، وانصهرت تمامًا في المنزل حيث باقي إخوتي ووالدي، حتى أختي الكبرى صارت تعاملني معاملة الأم، فقد ألقت بحملها عليّ منذ الزواج واستعداداته، ثم إنجابها، كان حملًا ثقيلًا، لكنه أغناني عن أي شيء آخر، فها هو المنزل والأبناء والأشقاء، بل صار ابن اختي طفلي وصديقي. رحيل أمي ألقى بي في كوة فصلتني عن الزمن والأحداث، نجحت المسئولية في إغراقي بالكامل، وبلا شفقة في خضمها.

كانت فتاة مدللة
وإن لم تنعم علينا بهذه النعمة
لكنها أورثتنا معنى الدلال الطيب

الذي يحفظ للمرأة أنوثتها الأنيقة داخل جسد وروح الأم
وورثت هي عن أمها الخير
يجري النهر بين كفيها يطرح سنابل قمح
فتصنع منه خبزنا يومًا بيوم
لا أظنك كنتِ ستحبين أن يتقدم بك العمر للآن
فكان حرصك على جمالك وأنوثتك طقسًا يوميًا
تتعبدين به في محرابك الخاص أمام مرآتك التي تعكس جمال روحك قبل ملامحك
وإنني لا اخشى تبدل ملامحي مع الزمن
لكنني أكره تبدل الزمن عليّ بدونكما إلى جواري
أتعلمين أنني تخطيت العمر الذي عشتهِ
أجاهد للحفاظ على ميراثي الأنيق منك
أعيش على فيض دفئك الذي أطعمتينا إياه مع كسرات الخبز

لا توجد لدي شجاعة للحديث عن رحيلها بلغة الفقد حتى بعد مرور سنين كُثر، لذا سأتخطى هذه الحكايات، وأتحدث مباشرة عما اكتشفته في احتكاكي مع العوالم الأخرى بعد السقوط من علٍ.

نظرت حولي لأكتشف أن أسرتنا الصغيرة لم تكن كما ظننتها طوال سنوات عمرى الست عشر وقتها ...

كنت أعلم أن لدي أختين وأخ وأم ووالد، وهؤلاء المؤثرين الأقرب والأكثر في حياتي وقرارتي، يتدخل الأب والأم كثيرًا في اختياراتي من باب الصحيح والخطأ، والثواب والعقاب، والإخوة يتدخلوا بموافقة أو رفض يقابلها في الغالب إذعان مني لعدم استساغتي للرفض وخوفي من فقدان صحبتهم ولو لفترات قصيرة، مع وجودنا تحت سقف واحد. اكتشفت ذات يوم أن لي أبوين، والدي الذي عرفته وأراه يوميًا، وأب لا أراه لكن عرفت بوجوده، بصوت زرعه بداخلي، بقوته وسطوته، يتحكم هو الآخر في اختياراتي. أحب أن أناديه بالأب أفضل من الجد، أشعر به كأبي رغم يقيني باستحالة أن يكون له ابن أو ابنة أو زوجة، لكن هذا شعوري فقط وليس حقيقته. لا أعلم كيف أشعر بحزمه وشدته، مع بعض الحنان أحيانًا، لا يقترب في صفاته من الجد الضعيف والحنون دومًا مع أحفاده، متنازلًا طواعية عن أي قدرة للسيطرة عليهم، رغم أنه قد يمارسها مع أبنائه، كما أنه بعيد عن التعب والوهن والتقدم في العمر، لأنه محتفظًا بقوته وسطوته بلا جهد إلى الأبد.

وهناك مخلوق آخر شعرت بوجوده، ذو سلطة تكاد تكون مقاربة لأبواي، أعتبره جارنا، لأنه ملازم لنا طوال الوقت، وإن لم يبدو كذلك.

ثلاثة إذن يتحكمون فيّ بالكامل، ويحكمون سيطرتهم علي ...

العـــــقد

لا أعلم متى بدأ اختياري تحديدًا!!

ربما .. ربما في ذلك اليوم عند زيارتنا السنوية لمقام السيد البدوي في محافظة الغربية، والذي كان بمثابة وِردًا سنويًا يجب أن نقوم به، محاطًا بكل التفاصيل المقدسة في مقام المقام..

في إجازة منتصف العام المدرسية كنا والدي وأمي وإخوتي نشدُ الرحال من القاهرة إلى طنطا في الصباح الباكر، مرتدين أبهى ما لدينا، فرحين بهذه الرحلة التي ننتظرها بكل شغف. فبعد زيارة المقام، نذهب لشراء الحلوى الملونة، وحلوى الجبن، والحمص والحلاوة الشعر لنا ولكل الأقارب المنتظرين بلهفة، وتكون مكافأة الصغار أكياس "حب العزيز"، إلى أن يحين وقت الغذاء عند أشهر حاتي بجوار المقام، إنها رحلة مباركة مبهجة حقًا بكل ما فيها. يومًا ما في إحدى هذه الرحلات، كنت في السابعة تقريبًا، دخلت مسجد "السيد البدوي"، وتوقفت عند صخرة بنية اللون، عليها بصمة غائرة لقدمين، قالوا لنا إنها قدما الرسول محمد، شعرتُ بشيء يتسلل داخلي، لم أدرِ ما هو، فقط كشعاع من ضياء، توهج له قلبي وارتجف بشدة. صرت أبكي دون صوت، لم أفهم وقتها ما حدث! ظلّت دموعي تسيل إلى أن ركبنا السيارة فأجهشت بالبكاء، سألتني أمي ووالدي عما بي، وكذلك سألت نفسي، ولم أجد إجابة. إلا أن وجه أمي أشرق بسعادة، وكأنها علمت بما لامس قلبي، ونظر إليّ والدي بابتسامة جميلة، ممتلئة بالرضا، بينما صرتُ مُحاصرة ما بين البكاء والجهل بما يحدث.

أمضيت عشر سنوات تقريبًا بعد هذه الواقعة أحاول طلب صداقة الشيطان، فكان الرفض من نصيبي دومًا، لم يقبل الشيطان صداقتي!! أليس هذا بمدهش؟!

وكأن قوى خفية تدفعني لأكون غير تلك الشخصية التي بكت داخل المقام، تقابلها قوى أخرى لا ترغب في تركك بمفردك. يبدو بلا شك أن أحد الطرفين –بخلاف والدي وأمي– أكثر قوة، لديه كثير من السحر، والغموض، وهذا لا يكون ضدك طوال الوقت، بل يعمل لصالحك أحيانًا لدرجة تدهشك. كأنك تعتاده وتتعلق به ويكون من الصعب تغيير الدفة للطرف الآخر، فقد توغل بك، وصار جزءًا منك، فكيف يرضى

بأن يذهب جزء منه للطرف الآخر؟! وقد يتخلى عنك في لحظة مفاجأة لن تعرف لها وقت، أو تعرف لها سبب، أي أن حياتك ستظل معلقة بين القبول والرضا أو الرفض والطرد من رعايته.

كانت المواجهة الحقيقية باكتشاف عوالم أخرى تتحكم في مصائري، وقد لاحت بقوة عند تجهيز أوراق التحاقي بالجامعة، حيث أحضر لي والدي ثلاثة اختيارات، يزين واحدة منها خطاب توصية من وزير التعليم بنفسه. من المنطقي أن تكون هذه الفرصة المزيلة بتوصية الأولى في الاختيار، وبالفعل أخبرت والدي برغبتي بها، إلا أنه رفض، أثار هذا جنوني، حاولت أسيطر على نبرة صوتي من شدة الغضب بينما أتحدث إليه وأكرر "طيب ليه حضرتك تعبت نفسك لغاية ما جبت جواب التوصية وبعدين ترفض"، لم يكن رده إلا مزيدًا من التصميم والإصرار على الرفض. إذن فلنذهب للاختيار الثاني، فوجئت به يرفضه كذلك، صرتُ ألف وأدور في الغرفة بينما نجلس، والحيرة تنهشني، إلى أن قرر أن التحق بالخيار الوحيد الذي وضعه لي مكتب التنسيق. وكان مكانًا مجهولًا لنا جميعًا، أصر والدي أشد الإصرار، وبالفعل ملأ الأوراق رغمًا عني، وأعطاني إياها لأذهب بها لمكتب التنسيق في الغد، وقام تاركًا الغرفة، ثم التفت إلي وأعطاني في اليد الأخرى أوراق الفرص ذات التوصية. بعدما خرج ظللت أنظر إلى الكفتين وأيهما أرجح، وبكيت لشعوري بالقهر، وكنت أبكي لأقل الأشياء وقتها، لأنني كنت منهارة داخليًا متصدعة من رحيل أمي، ويتم حرماني بما أرغبه واخترته أيضًا، لتكتمل المأساة. أكاد أجزم أن والدي نفسه لا يعرف كيف حدث ذلك ولماذا، وقد ازعج وأرهق نفسه لتأمين هذه الفرص، ثم يختار ويجبرني على اتخاذ تلك التي أتت بمفردها دون أي عناء.

بدأت حياتي في السير عكس كل اتجاه أسلكه، لم يسر أي شيء كما أريد مهما كان ضئيلًا، هناك قوى ما خفية أحكمت سيطرتها بالكامل عليّ، وعلى مجريات الأمور معي. كنت أسير بكامل قوتي الضعيفة نحو الفجر وكأني منساقة إليه انسياقًا دون مقاومة أو عراقيل، إلى أن بدأت بواقعة إجباري على الكلية، وتلاها مواقف كثيرة، شعرتُ معها كأنني كبرت فجأة وعليّ تحمل مسئولية جديدة، تكمن في إيماني بالفجر بكل ما بطريقه من تحديات، أو استسلامي لفكرة عدم وجوده.

أدركت وقتها العوالم الأخرى التي أعيش بينها، وحانت اللحظة للاختيار، وعلي توقيع "عقد" بيني وبين من أختار. أعطاني أبي الكبير عقد الاتفاق، وطلب مني اقرأه على مهل، بل أكد على ضرورة قراءته أكثر من مرة، والتفكر فيه وتفهمه، وتبين شروطه. بدا لي واضحًا إمكانية التراجع في أي وقت، حتى بعد

التوقيع بالموافقة، ولعلها المرة الوحيدة التي شعرت فيها إلى حد كبير أنني اختار، وإن كنت أظن أنه هو الذي اختارني أولًا وراهن عليّ.

أبي الكبير يوزع ميراثه مرتين، مرة قبل الفجر ومرة عند بزوغه، في المرة الأول يمنح أبناءه تركة متساوية في المقدار مختلفة في النوع، وتشعر دومًا أنها غير كافية ولا مرضية، فهو يمنحك ما لا ترغب فيه، ويمنع عنك أكثر ما ترغب، أو يوقد بداخلك رغبة لما لا تملك، وتصير هي شغلك الشاغل.

أزعجني وأثار دهشتي أنني في النهاية أقع في عملية رهان بين طرفين، لكل منهما قوته، وهل هذا هو سبب قدومي للحياة، لأعيش هذا الصراع الأبدي؟! أرهقت هذه الحقيقة عقلي، وعجز عن فهمها، بل وتقبلها. لكن عليّ الابتعاد عن منطقة الرمال الناعمة هذه، لأنه لا سبيل للنجاة منها، فكلما قاومت، غرقت أكثر، فلنعتبرها غرفة مظلمة فقدنا عن عمد مفاتيحها. أعرف البعض ممن رفضوا توقيع العقد، لأنهم أبوا يكونوا موضع اختبار، اختاروا بالفعل عدم الاختيار، رفضوا بشدة التوقيع أو الموافقة، فأصابهم الجنون، وفقد بعضهم عقله من فرط التفكير.

عليّ أن أختار الآن.. كل الوضوح والقوة، أو كل القوة وبعض الوضوح وكثير من عدم الفهم أغلب الأحيان لدرجة قد تصيبك بالجنون!!

تذكر يمكنك الرجوع في أي وقت وتعديل اختيارك ..

هيا اختر . . .

همس لي الجار، وهي طريقته المعتادة في الكلام، لا ينفعل أو يغصب مهما كان داخله مشتعلًا متقدًا..

- ماذا لو لم يكن هناك فجر!! ستمضي حياتك وأنتِ سجينة عقد، تنفذين ما به، وأبوك يمكنه إلغاؤه أي وقت عن طريقك، يمكنه تغيير عقلك، فكرك .. قلبك، وتضيع كل سنوات حفاظك على عهد ووعد لا تملكين له خيارًا حقيقيًا.
- قل لي وماذا لو بزغ الفجر في النهاية؟!! هل ستملك لي تعويضًا؟ أظنك تخاف الفجر لأن بزوغه سيبدد قواك، ولأجيب عليك بصراحة أكثر، مع أبي الكبير قد يكون هناك فجر وقد لا يكون، كلانا متفق على هذه الفرضية، لكن معك بالتأكيد لن يكون هناك فجر. فماذا يجعلني أختارك إذن وأنا لا

تعنيني الصباحات المؤقتة، بل لا تكفيني، يمكنك القول إنني أطمع في الكثير، فليكن اختياري بقدر طمعي. لست قنوعة فيما يتعلق بالشروق، فأنت تعلم بالتأكيد أن حياتي لا تشهد سوى غروب متكرر للأشياء والناس وكل شيء، أتوق للحظة شروق حقيقية ولو لمرة واحدة، فلتكن هذه أمنيتي الوحيدة والأخيرة، انتظار الفجر. ثم بمَ تعدني؟! فأبي يعدني بفجر وأنت!!

- أعدك بالحرية ..
- أي حرية في طاعتك؟!!
- وأي حرية في طاعة أبيك الكبير؟!!
- هي طاعة قد يكون لها جزاء، كما أنه يقدم لي كثير من الحب بأنواعه وألوانه داخل العقد، والحب في حد ذاته حرية، وإن كان بعض منه أسرًا، فهو من ذلك النوع الذي تألفه الروح وتهواه النفس.

اختيـــــــار

أشعر دومًا وكأني على حافة الأمواج، تعلو بي إحداها قرب السماء للحظات يراني فيها الجميع، مقابلها تهبط بي عشرات الأميال للقاع، حيث لا يراني أحد، فيظنوا أنني ما زلت عالقة بالقمة، لا يعلمون ولا يصدقون أيًا من صراعاتي في القاع فقط لأطفو. كنت أتمنى لو تبقيني هذه الموجات بالأعلى أكثر قليلًا، أو أظل طافية على الأقل، تعبت من الصراع في الأسفل للحد الذي رغبت فيه عن الحياة كثيرًا، فأبسط ذراعي وأكف عن المقاومة وأعيش مستسلمة للألم بكل ما أوتيت من قوة.

كلما اجتزت اختبارًا، وتأقلمت مع اختيار لم يكن لي يد فيه، وما ألبث أن أستريح من عناء تكييف أوضاعي الخارجية والداخلية، من معنويات وتعود ومعاناة وحرمان من شيء جديد، وإقناع عقلي وإرضاخه لحقيقة أن هذا خير الخيرات كلها، وأنني قد امتلكت مفتاح باب لم يعد يُفيدني امتلاكه بشيء، لأنه بحكم العمر لن أعود إلى الخلف، إلا وأجد بابًا آخر أكثر ضخامة وقوة. عليّ إذن أن أصارع من جديد في معركة غير متكافئة للتكيف مع نفسي المتمردة، نفسي التي من جهلها تتمنى لو تختار يومًا ما، رغم معرفتها الأكيدة بعدم قدرتها على تحمل رفاهية وتكلفة الاختيارات الخطأ.

كثيرًا ما كنت أكف عن الطلب والتمني، بما يفيد الطلب والإلحاح واستمراء الضعف، ولا يتحقق طلبي، ألجأ للصمت، وليفعل بي أبي الكبير ما يشاء ويريد، هو يعرفني أفضل مني، ويعرف أين مصلحتي. ولن أبالغ إذا قلت إن أغلب وإن لم يكن كل اختياراته لي كنت لا أجرؤ على تمنيها ولو في الحلم، ولم تكن في مخيلتي من الأساس. حقًا بعض الاختيارات كانت لتتغير لو وجدت البدائل الحقيقية وليست المستحيلة، كأن تتحقق لي أمنيتي في الإنجاب، ولا ألجأ لعذر أن كل من تقدم للزواج بي لم يكن مناسبًا، أو في حالات قليلة لم يلاق كل منا القبول للآخر، وفي حالات كثيرة كان الأشخاص المناسبون في الفكر وتلاقي الأرواح وتآلف القلوب، متزوجين بالفعل، ولم أكن لأقبل بهدم منزل لأبني سعادتي الخاصة، أو أقبل بمشاعر مؤقتة ذات مستقبل ضبابي قاتم، معلومة نهايته التعيسة. هذه كلها بدائل تُجبرك على اختيار واحد، أن تتيبس مشاعرك، وتشيخ أعضاء جسدك التي كانت ستأتي لك بالذرية الصالحة.

أريد تذوق تجربة إجابة طلبي، سأبكي وأتعذب إن كان خطأ، لكنني أتعذب وأبكي كثيرًا في كل الأحوال، وإن لم أرتكب خطأ ولا اختار. لا أُخفي أنني وأنا أكتب ما يجول بخاطري الآن بداخلي خوف أن

يتركني أبي الكبير فعلًا لتجربة الخطأ، هو يقرأ افكاري دون أن أصرح بها، أنا على يقين بذلك. يمنحني حق الحديث معه وعنه بحرية، لكنها حرية يشوبها الخوف، فقد أتذمر وأغضب وأنا أحاول انتقاء كلمات مهذبة تعبر عن كل هذا الغضب والإحباط، رغم تأكدي بأنه يقرأني من الداخل ولن يفيد التظاهر بخلاف ما أشعر، فهو يُجيد الاستماع إلي. كما وضع صوتًا بداخلي، ليرد على كل تساؤلاتي الباطنة والظاهرة، أحيانًا تكون ردوده بصوتٍ عالٍ، وكثيرًا ما تكون هادئة رصينة شافية، على قدرٍ عادل ما بين العقل والعاطفة. عندما يدور الحوار بين هذا الصوت وبين جارنا، آخذ محل المشاهد، أشعر وكأنني أتقمص دور هذا الصوت مع جارنا، لحد سخريته مني، واتهامي بعدم جدية شكوكي، أو ربما لخوفي من أبي الكبير. أكذب عليه وأرد بالنفي قطعًا، رغم أن علمي أنني أكذب، والخوف هو اللاعب الرئيس بعض الأحيان، ويتزايد مع اقتراب النهاية، أخاف خسارة هذا الرصيد الذي بنيته بالتعب والحرمان وكبت انفعالات ومشاعر لاستحق الفجر، أخشى نهاية راهب تاييس...

رغم كل الغضب بداخلي ليس لدي الشجاعة على تحمل الخطأ، ولنقل بصراحة أكثر، ليس لدي القوة ولا العمر، لقد استنفذت سنوات عمري وأنا أتألم لأصل لهذه الدرجة من اللامبالاة بالحياة، زاهدة زهدًا حقيقيًا، زهد من أمامه النهر الجاري ويمتنع عنه، فقدت الرغبة في الارتواء، تكفيني شربة ماء.

يا أبي هذا طلب صغير، لا يعجزك تنفيذه، فأنت تفعل الأشياء العظيمة، وودت قبل غروبي الأخير أن تجيبه لي، أعلم كل الكلمات والوعود الطيبة، التي تبدأ وتنتهي ب"لعل منعه عنك فيه خير"، بل وأصدقها أيضًا، لكنني رغبت في تذوق طلب اختاره لمرة واحدة. سأخبرك بما يثير جنوني، أعرف شخصًا ما، كلما تمنى أمنية أو طلبًا تحقق كما أراده بالضبط، هذا الشخص يعيش أتعس أيامه رغم كل ما يحيط بحياته من مظاهر ترف ورغد تُثير حسد الآخرين، لكنه أُبتلى بتحقيق كل رغباته، فجلبت عليه التعاسة بل حالت بينه وبين استمتاعه بكل النعم من حوله.

بالطبع لا أرغب أن أكون ضمن زمرة من تتحقق أمنياتهم كلها، ربما أرغب في التجربة ..

لكن .. أتشعر بذلك الخوف بداخلي، أن تتحقق أمنية وحيدة، وتصاحبني معها التعاسة والألم!!

أنا خائفة يا أبي، خائفة وغاضبة في ذات الوقت، لكن خوفي يهزم غضبي ويجعله يتراجع عن كل تلك الأمنيات البسيطة التي لم تتحقق.

أخشى القول بأن الخوف هو الشيء الوحيد الذي يحركني، لشعوري بذلك القدر من الحب أيضًا، كثيرًا ما يغمرني ويضعني بين دفتي نور، يتوغل بداخلي، يُنير كل الغرف المظلمة الداكنة، ويكأنه قمر يشرق في ليل الرابع عشر. وهناك شعور آخر بعدم القدرة على العودة، لا يمكنني وصفه أو تسميته، يكبلني بشدة من فرط الحرية التي يمنحني إياها، وإن كنت لا أجد لها سبيلا.

يقولون إنه كلما اشتدت وصعُبت الاختبارات، دلّ ذلك على حب أبي الكبير لنا، وهو بذلك يختبر مدى حبنا له، وجدارتنا للوصول وبلوغ الفجر.

أشار علي الكثيرون أنه يجب التعامل مع وسيط بيني وبين أبي، فهذا سيقرب من لغة التفاهم بيننا، ويجعلني له أقرب..

ولكن هذه قصة طويلة سأوريها على مهل فيما بعد..

البنت بيضا

أكثر ما يلفت نظر الأقارب والأغراب أنني ذات بشرة بيضاء وشعر لوزي اللون، وحتى مرحلة الثانوية، كنت ممتلئة القوام بشكل كبير، يقول البعض إنه ملفوف، والبعض يقول أنني ممتلئة، وآخرون يرونني على أعتاب السمنة، ويجب علي أن أحذر الوقوع فيها. وهكذا لا تجتمع أراء الجميع على شيء واحد، وهو أمر طبيعي، لكنهم اجتمعوا على إن "البنت بيضا وحلوة"، والعرسان "هتترمي تحت رجلها وتتقي براحتها"، لكنهم لم يلاحظوا أن كل هذه الصفات مختبئة خلف حجاب من الخجل الشديد، واحمرار الوجه عند أي كلمة أو نظرة إطراء. كنت دائمة الاختباء خلف أمي عند زيارة الأقارب، بل إنني في كثير من الأحيان لم أكن أخرج من غرفتي للسلام على أيّ منهم عندما يأتون لمنزلنا. كان والدي معتاد الخروج معنا لشراء الملابس، وكلما نذهب لمكان تبادره البائعات "ما شاء الله بنتك بيضا وحلوة"، ينظر إليّ مطولًا حتى أكاد أسمعه يتمنى أن أجد من يحفظني ويحافظ علي، ثم يتنهد ويرد بصوت متكسر "بكرة تروح لصاحب نصيبها".

صرتُ آية تتضارب حولها التفسيرات، وتفشل جميعها في معرفة المراد الحقيقي منها، فتعبت مني وتعبت التفسيرات، يتقدم العمر ولا أتقدم خطوة واحدة في الموضوع الأوحد الذي يشغل بال الجميع بخصوص تلك الفتاة التي تقف على عتبات العنوسة بإصرار. سأروي لكم يومًا واحدًا من أيام كُثر، بل شهور وسنوات مرت علي في مقاومة مع الجميع وأولهم مع نفسي، هكذا تبدأ الحكايات، وهكذا تنتهي، وينصرف الجميع، وأظل أنا في الحدث بمكانه وزمانه كل منا يعيش بداخل الآخر.

الساعة العاشرة والنصف صباحًا، ما زلت أحاول النهوض من السرير بصعوبة، من الساعة الثامنة وأنا أحاول، وكأنني سقطت في بئر عميق لا يمكنني الاستمرار في السباحة ولا الصعود إلى الحافة، حالة من الأرق الصباحي المعتاد، بجانب صعوبة النوم ليلًا، نوعٌ من النوم الإكلينيكي، حيث جفون ثقيلة مُطبقة بعناية، والوعي التام لكل حركة وسكنة بجواري.

يجب أن أنهض، وأمر على حجرة والدي لإلقاء تحية الصباح، أسمع صوت التليفزيون منذ باكر، ها أنا أضع قدمي على الأرض، لأعود بالكامل إلى الحياة مرة أخرى بعد ليلة طويلة ليست بجديدة.

- "صباح الخير يا بابا"
- صباح الخير .. متنسيش ميعاد النهاردة

يا لا الشقاء، كنت بالفعل نسيته بينما أنا غارقة في طلب النوم العزيز، على غير المعتاد وافق أبي على أن تكون مثل هذه المواعيد أحيانًا خارج المنزل، تماشيًا مع السائد الآن، ولقد عاصرت كل تطورات المواعيد من بداية الحرملك، إلى الخروج والجلوس مع أغراب في مكان عام، دون الخوف من الأقاويل حولنا وعنا. وقد بدأ والدي في تغيير قناعاته الراسخة أول مرة عندما كان لدي موعد عمل مع أستاذ جامعة قادم من الاسكندرية، وأنا في القاهرة، ولا يوجد مكان للمقابلة سوى أي كافيه محترم، اختار الأستاذ محل راق اسمه "شانتيه" بمصر الجديدة. تحدثت إلى والدي في هذا الأمر الذي كان محظور التفكير به من بعيد، سألته رأيه، وما يجب علي فعله، فوافق على مضض بعد أن تسربت كل الحلول من بين أيدينا كالرمال الناعمة. متأكدة أن فكرة قدوم الأستاذ إلى منزلنا جالت بخاطره، لكنها صارت محفوفة بالمخاطر والإيحاء بالارتباطات العائلية، لذا تم استبعادها على الفور. وساعد على طرد هذه الفكرة أن الرجال الراغبين في الارتباط أنفسهم صاروا يقاومون الذهاب لمنزل العروس، لأن ذلك قد يضعهم في حرج، وبالطبع تغير الأمر الآن، فلم يعد أحدهم يجد حرجًا في إتمام خطبة وإبرام اتفاق مع الأهل دون أن تكون لديه الرغبة الأكيدة في إتمام الزيجة.

الساعة قاربت على الخامسة، لقد مر الوقت سريعًا بينما أُعد الطعام وأرتب المنزل وأسبح مع أفكاري القلقة، سمعت صوت والدي متوترًا يُحدث أختي الكبرى في الهاتف، ويسألها عن سبب تأخرها، ويتعجلها في الحضور لتهتم بي، ويقول لها الجملة المعتادة "اتصرفي معاها". ألم أخبرك أن في ذلك الحين كان كل إخوتي تزوجوا الأخت الأكبر مني، والاثنان الأصغر، ولم يبق غيري، لا أحد يعرف السبب على حسب وصفهم، فأنا أتمتع بالجمال والأخلاق والأهم أنني أطيع الأوامر، وإن بدوت رافضة فسرعان ما أتنازل عن رأيي تجنبًا لأية مشاكل.

حضرت أختي في الخامسة والنصف، قبل موعد العريس بساعتين تقريبًا، وبدأت بممارسة طقوسها المعتادة علي، من أول اختيار الملابس التي تُظهر أنوثتي لكن بطريقة أنيقة، إلى الجزء الأصعب، ألا وهو وضع كل ألوان الطيف على وجهي. وهنا كان الشجار المعتاد، الذي ينتهي بصوت أبي الحاسم الغاضب بأن أطيع الأوامر، تركت لها وجهي لتعبث به كما تريد، كان وضع المكياج من أصعب مراحل الموضوع في كل مرة، الجميع يتفق على أنني ذات جمال طبيعي مقبول، تلوثه وتشوهه كثرة المساحيق، ومع ذلك وكجزء من التقاليد العتيقة لمثل هذه المواعيد، يجب أن أضع المزيد والمزيد. أختي نفسها تعلم أن طبيعة بشرتي حساسة،

وتليق بي الألوان الهادئة الناعمة، ومع ذلك كان من الواجب عليها أن تقوم بالدور، دون الالتفات إلى فشله أو نجاحه.

كان الموعد هذه المرة من المواعيد المنزلية، حضر العريس ووالدته، وأنا والمكياج، قرأت في عينيه الرفض التام، والرغبة في الانصراف سريعًا من أمام هذه الألوان المزعجة، عجبني الأمر، صار تسليتي الوحيدة وسري الذي أترك الجميع العبث به، بينما احتفظ به لنفسي. عبرت عن رفضي لكل من أخذ موعدًا خارج أو داخل المنزل بأنني تركت لأختي الحرية تمامًا للعب بالألوان في وجهي، وشعرت باللذة ونشوة الانتصار على أهلي في كل مرة يرفضني فيها أحدهم.

أحب والدي كثيرًا، وأعلم أن أختي ترغب في طاعته، وفي أن أتزوج، وأتفهم تمامًا مدى قوة حسرة قلبه على ابنته الطيبة المطيعة، وهي تقترب من العنوسة، ونظرات الاتهام، وعبارات اللوم والتلميحات الجارحة تحيط به بلؤم من الجميع، تضيق عليه قضبانها، يختنق، وبكل ضيقه وألمه يصرخ فيّ مستغيثًا بأن أوافق على المكياج، وكأن هذا هو السبب والسر الكامن في تأخر زواجي.

تكرر الأمر كثيرًا، إلى أن مل والدي وأختي، وفتر اهتمامهما بالأزواج المستقبلين، الرافضين لكل الألوان، أنا أيضًا مللت اللعبة، كنت أغافلهم أحيانًا، وأقابل البعض دون مكياج، وأمارس حريتي في الرفض أو القبول، في الاستمرار أو وضع كلمة النهاية، ظنًا مني أن الأمر فعلًا بيدي، وليس بيد أبي الأكبر وحده، وهي ما نقول عليه "القسمة والنصيب".

ألقى الجميع اللوم على الجميع، فالأقارب يلومون والدي، لظنهم أنه احتفظ بي بعد زواج إخوتي لأهتم به وبشئونه، وقد تحمل كثيرًا للدفاع عن نفسه من جهة وللدفاع ضد نفسه التي كانت تُجبرني جبرًا على قبول أي شخص فقط للهروب من اللقب. حاول كثيرًا عندما لاحت موهبة الكتابة علي، وصرتُ أنشر مقالات ودراسات بمجلات على المستوى العربي أن يتفاخر بابنته ذات الميول المختلفة عن باقي أفراد العائلة، فكان يفرح بأعداد المجلات التي تصلنا بالبريد وقتها، وعلى غلافها اسمي، فيتصل بقريب متباهيًا بانتصاراتي الصغيرة، ليرميه ذلك الذي اتصل به رجل كان أو سيدة بكلمات مثل "افتكرنا في حاجة تانية تفرح، معلش ربنا يعوض عليها"، كافية هذه القذائف من الحروف لاغتيال فرحته ونشوته المؤقتة، ولتحويلها إلى شعور بالحسرة والغضب. ووالدي يلومني لأنني لا أنجح في البحث عن زوج، بل يلومني وهو يعلم أن لا حيلة بيدي

أن لا زيجة تكتمل، ووصل الأمر أنني كنت أوافق على كل شيء، إلى أن يكتشف بنفسه استحالة إكمال مشروع تبدو كل مقوماته فاشلة بوضوح من البداية. يلومني أنني لست مثل كل الفتيات اللاتي يمكنهن لفت نظر أحد، وكيف لي أن أعرف ما تفعله الفتيات وقد كانت تربيتنا منغلقة من الأساس، كيف وإنني لم ألتحق بعمل وأختلط بالآخرين إلا في سن الرابعة والعشرين، وسنوات الدراسة الجامعية الأربع مروا بسرعة بينما لم استفق من صدمة رحيل أمي، لا أعرف كيف تقوم الفتيات بالألاعيب والحيل لجذب الرجال، لم أتعلم هذا من قبل، وكلما قلت هذا كان الرد يأتيني بأن هذا مما جُبلت عليه بنات حواء، ربما يكون صحيحًا، وربما كنت ممن لم تصبهم هذه الجبلة. كنت أتضايق من والدي وأُشفق عليه وأغضب جدًا في ذات الوقت، هذا بجانب لوم الآخرين ونظرات الاتهام من الجميع تلاحقني، وتحصرني في دورٍ واحد فقط، وبدونه أكون خاسرة مهما حصلت على مكاسب أخرى. كان يصل الأمر لحد دفعي للزواج ولا يهم إن تطلقت، لأن لقب مُطلقة أفضل بكثير من لقب "عانس"، أو أقل شيء أصبح أمًا، أي وضع سيكون الأفضل من العنوسة.

لن أكذب وأدعي أنني لم أحاول كثيرًا بمنتهى الجدية أن أجعل كل مشروع زيجة يكتمل، لم أكن من هؤلاء الرافضات للزواج، على العكس، لطالما تمنيت زوجًا مناسبًا بأقل حد ممكن من تأمين لحياة عادية، لن أقول جيدة أو رائعة، فقط الحد الأدنى من كل شيء، من المال والتفاهم والمودة. لم أرفض أحدًا مطلقًا كما اعتقد البعض واتهمني بالتدلل رفضًا لأسباب تافهة، حتى إنني كنت أقبل بالأرمل والمطلق، ومن له أبناء من زيجات سابقة، أقبل بمن لا حظ له من الوسامة أو اللباقة في الحديث، في الواقع قد أكون بالفعل لم أرفض أحدًا، بل كان البعض يرفضني، أو لا يحدث قبول بيننا من الأساس، لم أحظ بأن أكون ممن ينطبق عليهن مثل "خطبوها اتعززت". هذا بجانب ما زرعه أبي الكبير بداخلي من حب بجنون للأطفال، وقبول لديهم لحد مدهش، فلا يراني طفل قريبًا كان أو غريبًا إلا ويُلقي بنفسه بين ذراعيّ، ويلتصق بي رافضًا تمامًا العودة لأهله. عذبني هذا الشعور كثيرًا، قتلتني رغبتي في الأمومة، والسبيل الوحيد إليها هو الزواج، ولا زيجة تكتمل، قبلت باقتراح البعض أن أتزوج ولا يهم إن تطلقت بعدها بفترة، لكي أحظى بطفل، ولا يهم أيضًا إن تكفلت به بمفردي. احساس الأمومة عذبني حقًا، رؤية أطفال الآخرين كأنهم قطع قلبي متناثرة، يمكنني احتضانها لفترات قليلة أو كثيرة، لكن في النهاية من المستحيل أن تظل معي، وظلت هذه القلوب المتفرقة على البلاد والأماكن تؤرقني، لكن هذه قصة أخرى.

أمنية من أمنياتي القليلة كانت أن أحيا بين أسرة، وإن لم يكن مقدرًا لي أن أتزوج وأحظى بأطفال، يكفي أن أعيش مع أبي وإخوتي، ولو بمفردي في غرفة منفصلة، لكن صوتهم من الغرفة المجاورة كافيًا بل

وأكثر من كاف بالنسبة إلي، صوت التليفزيون بغرفة والدي كان كاف لأشعر بكل الاحتواء والأمان، وسأكتفي بهذا النصيب.

الجميع كان منشغلًا بلوم الجميع، بينما أنا منشغلة بالتساؤل عن ماذا يحدث، ولماذا؟!! وأنا على يقين بأن أبي الكبير إرادته تسبق وتطغى على كل شيء، إذن فلتكن مشيئتك، لن ولم يفهم أحد ما يصير معي، ولم أعد أنشغل أنا بالفهم، بل حاولت إكمال الطريق للفجر، ما أدركه ويتأكد لي يومًا تلو الآخر، أنني من "المختارين".

لا يمكنك أن تمر بطريق البحث عن فجر دون اللجوء لأحد طريقين أو كلاهما، طريق الوسطاء، وطريق الصوفية. الطريق الأول هو ما قد يجبرك الآخرون على المرور به أيضًا رغمًا عنك إذا لزم الأمر، لتكتمل صورتك وتحصل على زوج وأطفال، لكن الحصول على الزوج يكون هو الأهم، حيث فجأة وفي لحظة ما ستنحصر الأسباب في جملة "معمول لك عمل" ...

سوف ينصحك، بل وقد يجبرك الكثيرون على الجلوس على أعتاب الصالحين، ممن عرفوا طريقهم للفجر قبلنا، فتداوم الطرق على أبوابهم إلى أن يفتحوا، ويسمحوا لك بالدخول.

لم أفلت بالطبع من هذه الأبواب التي تفتح بشروط معينة، وتتسع الفتحات وتضيق بحسب أحوال خاصة، ولكن للأمانة لا تغلق إلا نادرًا، وكيف يغلقون أبواب الرزق برغبتهم، وإن كانوا يتظاهرون بذلك أحيانًا، كمزيد من الترغيب والتشويق. وهم نوعان، ولكلٍ منهم مريدون وجمهور، إما من يعمل كهاوٍ ويعتمد على الطرق المعتادة من مخاطبة المخاوف والعواطف بداخلك، أو متعلم وعالم ببواطن الأمور ومسالك طرق العارفين، ويرتدي عباءة العلم المقدسة، ولم تخل حياتي من كليهما.

في العام الثلاثين من عمري، احتار الأهل في أمر هذه الجميلة التي لم تتزوج بعد، فكانت الجولة المعروفة على المختصين بالسحر والأعمال، ولم أكن اشعر براحة، في حاجة أنا للزواج نعم، لكن ما رأيته من الشيوخ وما رأوه مني أقام بيننا سدًا. نسيت أُخبرك أن الملائكة صبرت عليّ، وداومت على طلب ودي، بل وألقت بداخلي بعضًا من القوة مغلفة بنور. ذات يوم وفي إحدى التجارب التي كانت تُجرى عليّ، وبينما الشيخ قادم مع أحد الأقارب من بلدٍ بعيد، دخل عليّ والدي بيده ورقة بيضاء، وطلب مني أن أضع عليها قدمي اليمنى وأرسم خطًا حولها. رفضتُ بشدة، نهرني بشدة أكثر، كنت أبكي بحرقة، فقد صادقت الملائكة، ولم أعد أرغب في شيء سواهم، انهزمت دموعي أمام سطوة والدي، وعينيه المتوسلتين المتألمتين من أجل فتاته "العانس". أجهشت في البكاء، وأسرفت في الدعاء، عشر دقائق وسمعت باب المنزل يُغلق بقوة، لقد فر الشيخ ولم ينتظر موعد الغذاء الدسم المصنوع لأجله، لم يأخذ نقودًا، كما أخبر أبي أختي، فالشيخ نهض فجأة مطالبًا بالرحيل بعصبية وتوتر كأنما يفر من شيءٍ ما. شعرتُ بالمرض بعدها لأسبوع، فقد خارت قواي في هذه الدقائق العشر لدرجة لم أعهدها في نفسي من قبل.

كنتُ أتبادل وأختي المزاح حول ما حدث للشيخ، ولكل من يأتينا بعده، وعن أن ما حدث قد أخافنا، أنكرتُ بشدة أنني خفت، وأن لا وجود للجن ولا الأعمال في الواقع. لم نتجرأ على التطرق لمثل هذه الموضوعات بعد ذلك، وعندما كان يلح الأمر على تفكيري، أسمع فجأة صفقة يد بجوار أذني، بينما أنا

بمفردي، لأثب من مكاني، وأهرب، صار منزلنا خاويًا من الشيوخ، والأصوات الغريبة المفاجئة، كأن حالة من السلام نشأت بيننا وبين السكان الأصليين.

كان الأهل يبحثون عن عريس بينما أبحث أنا عن الفجر، أرهقتني رحلة البحث، ولأنني أضع للعقل مكانته في هذا الطريق، فكان يجب أن ألجأ إلى العلم وأصحابه، وقطعت فيه باعًا ليس بسهل ولا يسير، كان طريقًا طويلًا مازال ممتدًا إلى وقت كتابة هذه السطور، لكنني أسير فيه الآن بمفردي.

حدد لي فضيلة الشيخ الدكتور موعدًا لأقابله للمرة الأولى، بعد معرفة عبر التليفزيون والهاتف للسؤال عن بعض الفتاوى، لم أكن أعلم سببًا حقيقيًا لهذا الموعد، إلا رغبته في إعطائي كتابه ليجيب عن أسئلتي المتشككة، واعتبرته سببًا مقنعًا، بل وأكثر من كافٍ، ولا أخفي أن مقابلة شخصية متميزة مثله فرصة يتطلع إليها الكثيرون، وكنت ممن ابتسم لهم الحظ لأفوز بهذا الامتياز. ذهبت قبل الموعد بنصف ساعة، كان وقت صلاة العصر، فأشار السكرتير إلى أن انتظره لبعد الصلاة بناءً على أوامره، كم كنت سعيدة لأنني حظيت بالصلاة خلفه، في مصلى السيدات، عدتُ لمكتبه انتظر. هلّ علينا وخلفه جماعة من الشباب، أشار السكرتير إليّ، ابتسم لي مرحبًا بوجهٍ باش، وطلب مني أصعد معه للمكتب، صار يتخطى السلالم مسرعًا وأنا خلفه، وقبل أن أدخل حذرني من الجزء المرتفع على عتبة بابه.

جلس على مكتبه، طالبًا مني بترحاب وتواضع أن أجلس قبالته، بدا لي وجهه مشعًا نورانيًا، وهو يتحدث ويجيب عن أسئلتي، محتفظًا بابتسامة جميلة. مولانا كان في أواخر العقد الرابع من العمر، وسيمًا، صوته الهادئ يجعلك مطمئنًا، تحوطه هالة من الجاذبية المفرطة، مُحال تجنبها، شئت أم أبيت. لم تمض خمس عشرة دقيقة إلا وقد عرف أدق تفاصيل حياتي، دون أي جهد منه وبمنتهى الجود مني، وطلب أن نجلس في جانب آخر من المكتب، ليضفي بعضًا من الألفة –التي لم نفتقدها لحظة– على حديثنا. استمرت الزيارة ثلاث ساعات، لا أعلم كيف مرت بهذه السرعة، لكن شاركني فيه زوار آخرون، رجال ونساء، وفتيات، من كل الأعمار والمستويات، موظفون، وزملاؤه في العمل، وأغراب، ومريدو الشيخ. لفت نظري أن كل من يدخل يخلع حذاءه، وينحني ويقبل يد مولانا، ومنهم رجال أكبر منه في العمر بعقود، ولما استرعى انتباهه تركيزي في هذا الأمر، حاول على مضض أن يسحب يده ممن يقبلها، مركزًا عينيه عليّ، يراقب ردة فعلي التي بانت مستنكرة للموقف. خفيف الظل، مرحًا، يمكنه أن يغير المناخ الكئيب للمشكلات التي تُعرض عليه لأقل توتر وحدة، كان يمسح دموع النساء والفتيات بكلماته الحانية، ويربت على كتف الرجال ويشد من

عضدهم. سيكون من غير الجائز ولا المنطقي أن أنكر إعجابي به، بل وأكثر من الإعجاب، انبهار، انجذاب، أي منهم، أو كلهم مجتمعون يصفون ما شعرتُ به.

لفت نظري أن ملامحه النورانية تلاشت قليلًا عندما ابتعدنا عن المكتب، واكتشفت أن خلف مكتبه نافذة، ترسم حوله هالة من نور، تضيء وجهه، بجانب ابتسامته الجميلة، في نهاية اليوم شعرت بسعادة لهذا القرب من شخصية سوف تساعدني على التقرب إلى أبي الكبير. وبينما أهمُ بالانصراف استوقفني، محدقًا في عيني، وأخبرني بسعادته الغامرة بهذا اللقاء، وأنني أجمل مما تخيل، ويتمنى أن نظل على تواصل، تسرب إلي إحساس لم أجرؤ على تصديقه، فكل هذا القرب والألفة كأننا أصدقاء من زمن، والأهم ما قرأته في عينيه كان غير معقول.

تكررت اللقاءات، وواظبت على حضور دروسه، وكنت أساعده في عمله المكتبي، لفت نظري أن بعض الأبحاث التي تُقَدم لطلب استشارته، بعد فترات وجيزة أراجعها كمسودة لكتب وضع عليها اسمه، أو أجده يفرد حلقات لها في التليفزيون دون ذكر صاحب البحث. كانت تأتيه مكالمات هاتفية يترك لي المكتب، ويعود بعدها غاضبًا لأقصى درجة، محاولًا بفشل إخفاء غضبه، لكنني كنت حفظته عن ظهر قلب، انفعالاته، متى يمثل التأثر، كيف يطوع الأحبال الصوتية وفق المكالمة الهاتفية أو الموقف، كيف يبتسم للمشاهدين، ويدير وجهه عن الكاميرا يسبُ في أسئلتهم الغبية.

أغلب زواره من النساء والفتيات، لم يكن وجودي مستحبًا في هذه الجلسات، بعد أن نبهني لذلك الأمر، باعتبار أن هذا يمثل لهن إحراجًا، بينما حضوري جلسات الرجال لا حرج فيه، إلا إذا كان الموضوع حساسًا، وما أكثر الموضوعات الحساسة عند مولانا، وكان الوضع مختلفًا عندما يجيب على الهاتف ويفتح الصوت، كنت أفر من المكتب من هول ما أسمع. وأسأله بدوري "مش حرام يا مولانا أكون معك والرجال في جلسة واحدة، والمفترض عدم الاختلاط، وتجنب الخلوة مع الرجال، أو سماع أدق خصوصياتهم الخادشة للحياء، سواء كنت متزوجة أو غير متزوجة؟"، كان يجيب بأن هذا عمل، ولا حياء في العمل، ولا ينسى أن يمتدح عملي التطوعي، الذي طغى على عملي الأصلي، مبررًا عدم دفع أجر بأن الحال غير ميسور، وأنني راضية تمام الرضا.

بدا لي مولانا وعالمه اكتشافًا في حد ذاته، كل ما شاهدته وعرفته، يوجب عليّ أن أدفع أموالًا، لا أن أطمع في راتب، تعلمت بعد فترة وجيزة كثيرًا من أمور الحياة، كلها لا علاقة لها بالتقرب من أبي الكبير، والأهم، أن كل فعل له مبرر، ويتوقف كونه حرامًا أو حلالًا على من سيمارسه. وعندما استبدت بي الحيرة تجرأت وسألته، كيف يعيش في التناقض بين ما يقوله على شاشات التليفزيون، وبين ما يفعله ويقوله للناس في الواقع؟! أتت إجاباته كالعادة مرتبة، تخضع لمنطقه الخاص، الذي يحميه بردائه المقدس، فمهما فعل مولانا وهو يرتدي العمة والكاكولا جائز لأنه "راجل بتاع ربنا". لم يعد يجد حرجًا في أن يتصرف بطبيعته أمامي، وأصبح أمر تقبيل يده، وخلع الحذاء على باب مكتبه شيئًا عاديًا، وطبيعيًا، إلا أنني كنتُ الاستثناء. ولا يمانع أن يكذب، ويحلف بأغلظ الأيمان كذبًا، وأن يخدر إحداهن بكلماته الحانية، وبعدها يصلي ركعتين، أو عندما تأتيه امرأة مطلقة أو أرملة، يبدأ معها بالصلاة ركعتين، ويمسح على وجهه، ويخبرها بأن الله أمره بالزواج منها، بالطبع هذا الأمر الإلهي لا يجوز إلا لمستويات معينة من الجمال والمال، وإن كان المال هو الأهم.

لم يستثنيني مولانا من عطفه وكرمه، فلم أكن لأفلت من عروض الزواج العرفي، أو الزواج السري، كي لا ينهدم منزله، وبعبارة أدق منازله، والفرق بيني وبين من وافقن قبلي أنني لم أتزوج بعد، ولستُ ممن تتلهفن على الزواج بأي وسيلة، والحقيقة لم يكل أو يمل من تكرار طلبه، ويتمتع بصبر الصياد، كما يجيد صنع الشِباك بدقة وحرفية. ذات يوم أعطاني كأسًا وطلب مني أن أُسمي قبل تذوقه، سألته "أليس الخمر حرام يا مولانا؟!" أجاب "لكن القليل منه غير مُسكر"، ثلاثة أشهر في رفقة مولانا كافية لأن تغير حياتي وقناعاتي.

أدركت بل تأكدت بعد حكاية مولانا التي لم تكن أول خبراتي بأصحاب العلم، لكنها أقواهم، وأكثرهم إقناعًا بعدم وجود جدوى، ولا أهمية لوجود وسيط لمعرفة الطريق الذي سيبزغ منه الفجر.

تذكرت أن أبي الكبير قد منحني صوتًا بداخلي هو دليلي كلما ضللت الطريق، أو أضناني التيه بين جوانبه.

الصوفية

لم ينج الكثير من السير في الطرق الصوفية إحداها أو كلها أثناء رحلته في البحث عن الفجر، وهو طريق يستحق عن جد السير فيه. رغم أنه قد لا يقدم لك الإجابات التي تبحث عنها، إلا أنه يهيئك نفسيًا وروحانيًا لتقبل كل ما يمر بك، ولتطمئن نفسك وروحك لما أنت فيه وتسير إليه، التعاليم الصوفية حتمًا تخاطب الروح قبل أي شيء، وهذه هي المعتدلة منها. ستبدأ باقتباس عبارات وكلمات من الحلاج وجلال الرومي، وعندما تزداد معرفتك، ويُصقل قلبك، وتصير أكثر قابلية للعلم والتعلم ستنتقل للمراحل الأكثر نضجًا، وتبدأ في قراءة ابن العربي، ثم الرسالة القشيرية، وكشف المحجوب للهجويري، وغيرها من المراتب الأعلى والأعلى، وقد يكون بعضها أكثر تعقيدًا من تلك العبارات اليسيرة والبسيطة للرومي والحلاج. ستندهش لماذا شخص كالحلاج يتم قتله بتقطيع أوصاله وتعذيبه بهذه الطريقة البشعة حتى الموت، لو كنت من أصحاب الانفعالات الزائدة وسيطرت عليك العاطفة وحدها، ستكتفي بالرفض والهجوم والإنكار لموته هكذا، ولو كنت من أصحاب الفكر المنغلق على ذاته، والقاصر ما بين الحلال والحرام، دون أي إعمال للفكر، وأن الحلال والحرام لهما شروط، وإلا انقلب الحلال حرامًا والعكس، ستقول "حلال فيه الموت"، لأنه تعدى على الذات الإلهية. وإذا قرأت الصورة بشكل كامل، دون جمود أو انفعال، ستعرف أن الرجل قد أصابته في رحلته لوثة من انعدام الحدود، والتوحد تمامًا مع الكون بقدر كاف لتخلي العقل عن حكمته. وهو الخط الفاصل ما بين أن تتأمل في الكون، مرسلًا روحك إلى السموات العُلى، متأملًا لكل ما به، متأملًا لذاتك، متماهيًا معه، شاعرًا بضآلتك وقوتك في ذات الوقت، وما بين أنك خالقه، وأنك أنت الأعلى، وأن توحدك معه توحد ربوبية، فأنت ربه ومليكه، وهذه صفة لا تنطبق على البشر. ورغم هذا الالتباس الناتج عن محدودية العقل البشري في تحمل خلق الكون وماهيته، إلا أنها ليست جريمة تستوجب القتل، وتمزيق الجسد، وإن كان أصل الموضوع هنا ليس دينيًا، ولا غيرة على خالق الكون وعظمته، بل أظنه سياسيًا، يتعلق بالجماهيرية والشعبية التي حققها الحلاج في عصره، وأفضت به إلى الموت. ولم يكن الحلاج وحده قد تماهت عنده الحدود، بل الرومي وفي علاقته مع شمس التبريزي، حيث الانصياع الكامل والطاعة العمياء، لشدة ثقته به، ولأنه اعتبره معلمه، ولذلك وجبت الطاعة، فتجد مقارنات لا أصل لها ما بين البشري والربوبي، كأن يطلب التبريزي من تلميذه الرومي الدخول إلى محل وشراء الخمر، وهذا بخلاف ما يأمر به الدين، لكنه يتبعه ويطيعه في معصية لإثبات فضيلة ما. وكثير من المواقف التي تقارن ما بين فرائض أساسية كالصوم والصلاة والحج كعبادة وكتجربة روحانية، والفصل ما بين الجانبين، رغم أن الأساس من هذه الفرائض أن تجمع بينهما، وإن لوثتها أفكار وأفعال الناس، ورياء البعض، وتأتي هذه المقولات بدافع الاهتمام بالجوهر، وبنقاء القلب

وطهارته، لكنها في ذات الوقت تفتح بابًا، بل أبوابًا من التقاعس وترك هذه الفرائض تحت مظلة أن القلب يقوم بها، فما الداعي لأن يقوم بها الجسد أيضًا. الجسد كالقلب في حاجة إلى نقاء وطهارة من الداخل والخارج، بل إن أعضاءه تسبح وتعمل في كل دعاء وصلاة وطواف، فهل يتساوى من طاف بقلبه فقط حول الكعبة للحج، مع من طاف بقلبه وجسده أثناء رحلة عمرة أو حج؟!! بل إن من جرب الحج رغم تطابق مناسكه مع العمرة في الطواف، سيدرك أن كلاهما مختلف تمام الاختلاف، لكن لن يتذوق هذا إلا من طاف بجسده وقلبه معًا ولو لمرة واحدة في العمر، ستكون كافية، وليست كافية، لكن بالتأكيد ستكون شافية بقدر صدق وحضور قلبه مع جسده.

أقرأ في كثير من الكتب أن هذا هو مسلك الدراويش وأولياء الله الصالحين أصحاب المقامات والكرامات، ويزيد عليهم أصدقائي ممن على اتصال بالعارفين بالله، فيأتي أحدهم بصورة رجل وقد تمزقت ثيابه، أغبر، أشعث، ويقول إنه من العارفين. لا أنكر حديثه، ولا أدعي أن هذا الرجل ليس من العارفين، لكنني أعرف أن السالك للطريق يجب أن يكون طيب المظهر نظيف الملبس والطلعة، لا أقول ثيابه غالية، بل نظيفة نقية كباطنه. إذ كيف أدعو الناس إلى طريق وأنا على هذه الطريقة، أبدو ضالة، وحتى إن لم أكن قد وصلت، لكن معي ربي يهدين، كيف لا أبدو طيبة وأنا بصحبته، وأنا أخاطبه وأناجيه طوال الوقت، كيف أخالف حقيقة أنه طيب ويحب كل طيب.

وفي مقام الدراويش والعارفين، سألت صديقة لي علمت أنها اتجهت للصوفية وتوغلت فيها بكل كيانها أن تدلني على أول الطريق، فرحت وتهللت وقالت "هنيئًا لك"، وكنت قد علمت أول ما علمت وجوب وجود شيخ ومعلم لك، وهو ما كنت أتمناه، أن أجد شيخًا ومعلمًا يرشدني لطريق الفجر، ومادام العلم في دور العلم لم ينجح، فلأبحث عنه في دور أخرى. أخبرتني صديقتي أنها ستتصل بي بعد يوم أو يومين على الأكثر من حديثنا، وإذا بها بالفعل تتصل بعد يوم واحد، في ليل شتاء قارس البرودة في التاسعة مساءً، وتخبرني بصوت متعجل مرتعش بضرورة اللحاق بها إلى مسجد ما ...

- لكن الوقت متأخر على الخروج، والدنيا برد
- معلش لازم تنزلي وبسرعة، مش أنتي اللي سألتيني وعايزة تعرفي الطريق
- أيوة عايزة اعرف، لكن مش كدة بالعقل، وبعدين ليه العجلة وفجأة كدة
- من الآخر كدة كلمت شيخي عنك ورحب بوجودك جدا، وعايزك دلوقتي

- شيخك!! طيب كويس، لكن هي المساجد فاتحة دلوقتي، ده وقت العشا خلص من يجي ساعتين، طيب هو مين واسمه ايه؟؟
- مش هينفع اجاوبك على أي أسئلة، مش مأذون ليا أقولك أي حاجة غير انك تحضري ودلوقتي، كفاية أن قلت لك على الشيخ
- انتي ما قلتيش حاجة ولا أنا فاهمة، عشان انزل بالليل كده
- طيب الشيخ اسمه أحمد، وطلبك بالاسم، ودي حاجة مش بتحصل
- أحمد ايه؟؟ وطلبني بالاسم ازاي وليه، هو يعرفني قبل كدة؟؟
- معنديش الإذن إني أقول، انا كلمته عنك وعن حياتك وظروفك، ورغبتك في العلم
- انا كمان مش هينفع أروح لحد ما اعرفوش وبالطريقة دي
- خلاص براحتك، لكن اعرفي إنك لازم تدقي أعتابهم، عشان توصلي، ومن غيرهم هتوهي ومش هتعرفي الطريق، ولا حد هيدلك غيرهم، ولا حاجة هتشفع لك غيرهم، ومن غيرهم مش هينظر إليكي نظرة الرضا ولا الهدى

أنهيت المكالمة مع صديقتي، وقد علمت أن كل السبل لا تهديك إلى مبتغاك، بل قد يضلك بعضهم ليوهمك أنه الدليل، لكنه قد يكون البئر الذي يأخذك في باطن الأرض، حاجبًا عنك كل ما تريد التأمل فيه وبه، أدركت أن هذا الطريق رغم رحابة وكثرة مريديه وسالكيه، ليس طريقي بتلك الشروط، فلا يمكنك وضع شروط ووسيط بينك وبين ما تبغي وتحب.

حياة بطعم الرحيل

تأخر والدي في تعليمي الطيران
وفجأة أمرني بالتحليق
فشلت أجنحتي الكبيرة في تحمل عبء السنوات
طردني خارج القفص
استندت إلى الباب المغلق متوسلة لدمع عينيه الخجل مني
حلق والدي
وما زلت ألتصق بالقفص الخاوي بأغلال من حرير

رحيل والدي سبب انهيارًا كاملًا، ليس فقط لمنزلنا الصغير، بل للعائلة كلها، هكذا يحدث عندما يتداعى عمود العائلة. بخلاف أمي لم يتوقع أحد رحيله المفاجئ، ما حدث له كان مجرد وعكات صحية صغيرة، اختتمت بضرورة إجراء عميلة جراحية. استعان والدي بأكبر الجراحين المشهورين بإتقان هذا النوع من الجراحات، وبقدر شهرته، بقدر غروره وإهماله، فقد أهمل الحالة وتركها للأخرين، رغم كل ما حصل عليه من أموال طائلة، أُصيب الجرح بتلوث، ومنه في غيبوبة، ثم رحيل قاتل لنا جميعًا.

أرتدي أجمل ابتساماتي
كلما زرت ذلك القلب الطيب
لا أجعله ينظر إلى عيني
املأ الوقت بكثيرٍ من الضحكات والنكات
شعره الفضي وابتسامته الدافئة لا يستحقان الإحساس بالألم
دمت بخير يا من تصلنا بالخير

أنعم علي أبي الكبير بنعمة اختيار والدي لي للإقامة بجواره طوال فترة وجوده بالمستشفى بعد إجراء العملية الجراحية، وكان لعدم زواجي حينها دور مهم، إذ إنه السبب الذي جعلني أحظى بهذه الأيام معه على انفراد. رغم مرضه وحالة الإعياء المستمرة التي لازمته، كان محتفظًا بكامل هيبته ووعيه لما يدور حوله، إلا في اللحظات التي كانت تأخذه بعيدًا عن العالم بفعل المسكنات القوية. وكان عليّ طوال

فترة تواجدي معه أن أبدو جيدة المظهر، ذات أحاديث مرحة، وكلمات هادئة، باعتبار هذا جزء أساسي من العلاج، حيث الاهتمام بتحسين الحالة النفسية للمريض، والإبقاء عليها في أعلى حالاتها بقدر الاستطاعة. وهو ما تطلب مني قوة نفسية، وقدرة على التسلية والابتسام الدائم، بينما أراقب شمعة والدي تغفو يومًا بعد يوم، وبداخلي ينطفئ معها، وشعور بالعجز لا ينام ولا يهدأ، وألم يمزقني بقدر كل هدوئي الظاهر. كنت أبكي في الحلم نهارًا، عندما يأتي إخوتي، فانتهزها فرصة مناسبة للنوم، أو انتظر بعد أن ينام والدي، وأجلس خارج غرفته مُطلقة سراح دموعي، ولا ألبث أن أدخل عليه ثانية، فلا يظهر علي أي أثر، وهذا يجده البعض ميزة، بينما يعده البعض عيبًا "ألا تظهر عليّ آثار الدموع والبكاء مهما بلغت حدته، يقولون أنه ليس لصالح المرأة، ولا من شيمها". إلى أن حانت اللحظة الأخيرة ما قبل دخوله في غيبوبة استمرت لأسبوع واحد قبل الرحيل الأبدي، انهارت فيه كل قواي التي بذلتها في شهر كامل دون تعب أو إرهاق، ولم أدر من أين أتيت بكل هذه القوة وقتها، حتى إنه كثيرًا ما كان والدي يندهش من ردة فعلي مع الممرضات وذلك الطبيب المشهور المتعالي. في تلك اللحظة الفارقة ذهبت أنا الأخرى في غيبوبة، وإن كنت أبدو أنني أسير، بل أهيم على وجهي في المستشفى، أسأل كل من يقابلني أعرفه أو لا أعرفه "وأنا هاعمل إيه دلوقتي"؟؟!!.

عقب الرحيل أصبت بانهيار عصبي حاد، فقد ذهب عالمي بأسره بلا رجعة، تلاشت الخطط التي قد وضعها والدي لنا بعد ما صرف نظره عن الإلحاح في موضوع الزواج، ووجد أن هناك أشياء كثيرة يمكننا فعلها عوضًا عن إنفاق حياتنا في الانتظار.

أكان عليك وضع خطط لحياة لن نحققها معًا يا والدي!!

كنت أظن أن روحي معلقة بك
وبينما أناجيك ألا تتركني
وجدت روحك عالقة بالأرض تتألم لأجلي
أخبروني أن جسدك طفا من همس رجائي
بينما أنت ممدد بين الأغطية البيضاء
كان علي تحمل ألم فراقك حتى لا تتألم أكثر
يغلق الباب عند سطوع النهار
ولا يبقى منك غير صورة

تبدو فيها كل مرة أجمل وأكثر صمتًا
على روحك كل السلام والمحبة

صورة والدي وأنا معلقة بذراعه ليوصلني إلى العريس لم تفارقني يومًا، لم تكن ملامح ذلك الرجل واضحة، مجرد شخص طويل يرتدي بذلة العرس، فصورة فستاني الأبيض المنفوش بجوار والدي تحتل كل الذاكرة، أغلب تفكيري منصب على شكل الطرحة، وجزء منها يغطي وجهي، في انتظار من يستبدله بقبلة على جبيني، ما حدث أنني من أوصل والدي لداره الأخير ملتحفًا بالأبيض. لفترة ما كنت أفكر فيمن سيكون وكيلي، فالعروس يجب أن يكون لها وكيل، أخي كان الخيار الأوحد بعد أبي، ثم أعمامي، ثم خالي، وإن بدت الصورة ناقصة مظلمة حتى في وجود كل هؤلاء، لم أكن أدري أنها ستستمر في النقصان والظلام إلى أن تختفي تمامًا.

هكذا صرتُ وحيدة إلا بصحبة إخوتي، بعد الأربعين انصرف كل إلى بيته وحياته، وصارت دائرة من الفراغ تتسع حولي، بينما أزداد ضآلة، أنا التي كنت استأنس فقط ولو بصوت أحد منهم في غرفة مجاورة، صار لي المنزل بأكمله، لكن فارغًا.

كان الوضع جديدًا على الجميع، ليس عليّ وحدي، فلم يحدث في العائلة برجالها ونسائها أن عاش أحد بمفرده دون زوج وأولاد، ظهرت بعض المحاولات المترددة لأذهب للعيش مع أحد من أعمامي، أو بالأحرى أحد من إخوتي، لكنني رفضت لخوفي أن أثقل على أحد، وبالطبع الوضع لن يكون مريحًا لا لي ولا لهم، كان إلحاحهم في البداية قوي بفعل حداثة مشهد الرحيل، ثم ما لبث أن فتر بفعل الأيام. عليّ أن أتحمل عبء ظروفي بنفسي، ولا ألقيها على الآخرين، ربما هو ذنب كان علي تكفيره بأقسى عقاب، سنوات طوال من الوحدة، وربما كان منحة يختبر بها أبي الكبير مدى استحقاقي للاختيار.

من زمن نص بعيد
خرجت على التقاليد
ستات العائلة ورجالها جاهلين بالحياة من غير جدران ولا أبواب
حتى اللي يغيب مسيره للعودة قريب
كلنا كنا نسند عليه

كان وتد وجذر قوي ويعرف وقت ضعفك يلين
في البداية كانت الشفقة والحيرة وكلمة "مش عارفين"
وبعدها كان البُعد احسن من إحساسهم بالعجز
ولأن البُعد يلزمه سبب
قالوا لي " أنتِ خرجتِ على التقاليد"
كنا قلوب كتير في البيت
اللي سافر واللي فارق
واللي فضل قلب واحد بيعافر بضعف
نبضة صغيرة بالحب تكفيه قوت يومه وتضلل على صبر السنين وطرح الحنين

إليهما أينما كانوا

أرحل إليكما كل يوم
وأترك جزءًا من روحي لديكما
بتُ لا انتمي لهذا العالم
أكتب إليكما من الجانب المظلم للقمر
أظنه اكثر بهاءً عندكما
ما زلتُ أحقق أحلامنا بمفردي
وهو ليس بيسير أو ممتع
ولي عتاب
لمَ اشركتموني في أحلام رغم نية الرحيل في أول الطريق ومنتصفه؟!
أنا كذلك توقفت
لكن الأحلام ما زالت تتحقق وتزين جدران البيت
أرى ابتسامتكما خلف الحجاب الزجاجي الشفاف
وانتظر الانتقال للجانب الآخر من القمر

لم يعن عتابي أن تأتيني في الحلم وقد قدمت نفسك للمحاكمة
مكبلًا بالقيود بعينين يملؤها الأسى والأسف
أسحب عتابي كما أعلنته على الملأ
أنا بخير وأحقق أحلامك
لا يهزمني سوى حزن عينيك

خـلـــوة

لأنه ليس متاحًا للجميع القيام بخلوة والذهاب إلى محراب للتعبد كما كان يحدث مع الأنبياء والرهبان، وكما كانت تذهب السيدة مريم، وتجد رزقها من طيب الطعام والشراب المبارك، فكلما تقدم بنا الزمن ذهبت الأفكار إلى طور البدايات الأولى. إذا كان المجتمع يحكم بالسوء على من تعيش في مكان بمفردها، وتؤيده الفتاوى في ردع النساء عن الذهاب لأي مكان إلا بصحبة آمنة، وبالطبع لا يوجد في بالهم إلا أن يكون رجلًا، زوجًا كان أو أبًا أو أخًا، فإذا رغبتُ في البقاء في خلوة بمفردي بمحراب بالصحراء أو الجبل، يصير الأمر غير آمن، ولا أُخفي فعلًا اختفاء الأمن والأمان عن ذي قبل، حتى عن أيام الجاهلية ووقت الغارات على القوافل، إذن فما السبيل!!

قرر أبي الكبير أن يهديني خلوة كما يجب أن تكون، وأنا وسط كل الناس والزحام من حولي، رغم أن الوحدة قد بدأت تتوغل في أوصال حياتي وتوهنها. لم تكن خلوة باعتزال المكان، وانتقالي الجسدي، بل بمفهومها الحسي المعنوي، صرتُ بداخلها جسدًا وروحًا، عامًا إلا شهرًا ونيف وحيدة ثم وحيدة تمامًا، كم بدت خلوة حقيقية للغاية ...

كشرارة نار على جناح يمامة، تطير وتحط على أسقف البيوت بين غيطان القمح، سرت قطيعة تأكل ما تبقى من رحمة بيني وبين إخوتي، فتفرقت بنا السبل. بدأت بأخي الوحيد حيث جدال مستمر لأتفه الأسباب، وبخاصة إن لم أتفق معه في الرأي في أي شيء مهما كان ضئيلًا، لا تهم التفاصيل لأنها تبدو مذهلة في عدم أهميتها، لكن النتيجة قطعية تامة لمدة ثلاث سنوات. تخللت خلالهم جدالات مماثلة مع أخواتي البنات، ومعاملة بإهمال وعدم اكتراث، لم أكن البادئة بأي فعل، بل كنت في الأغلب رد فعل لما أراه من تجاهل وشعور بملل في وجودي، وعدم ترحيب بي بمنازلهن في زياراتي القصيرة، لا أريد أن أبدو كملاك لا يفعل شيئًا، لكنني لم أقم بخطيئة وإن كنت عوملت كأنني ارتكبت خطايا العالم بأسره.

إلى أن جاء عام حوصرت فيه بالأحزان من كل جانب، فيه قطع إخوتي صلتهم بي.
وصرتُ أكثر وحدة .. وحيدة تمامًا

أظن أن عقلهم الباطن يعي تمامًا أنني لستُ بكل ذلك السوء الذي يلوحون به في وجهي، ويبادلونه بمعاملة أسوأ، وكلما رددت عليهم بالحسنى يزدادوا قسوة، مُصرين على وضعي في تلك المساحة التي خلقوها لي. وأي محاولة مني لإيقاظ حقيقتي الكامنة في عقلهم الباطن، ترهقهم، إذ تذكرهم بأن هذه الصورة تتطلب اهتمامًا ومسئولية ولو بسيطة تجاهها، فيكون رفضهم أكثر عدوانية، ويهشمون تلك المرآة التي تعكس ما بداخلهم، ناعتين إياها بالزيف، ينالني حطامها، يرشق في كل مكان بداخلي، ويستمر النزف والألم وفيان إلي إرضاءً لهم.

المشكلة ليست أنني أُصدق .. لكن أنني استمر في التصديق، أُصدق حين يقولون سنتصل بك، فأنتظر وأنتظر أيامًا وليالي دون أن يتذكرني أحد، أو حين يقول لي أحد أحبك، هذه ليست كلمة نلهو بها ثم نهملها، إنها كالمياه مهمة للبقاء على قيد الحياة، يا شركاء الحياة.

أخذني إليهم الحنين، فسبحت في الخيال، بأنني هاتفتهم ذات يوم، طلبت فقط أن يسترسلوا في الحديث بأي كلمات، راويين كل الحكايات التي يعرفونها إلى أن يتسلل النوم لعيني على صوت قريب، عوضًا عن ركوني إلى باب منزلي لأستأنس بأصوات الغرباء. في اليوم التالي، ذهبت إلى منزلهم الذي بات بعيدًا، ألقيت السلام، ذهبت لغرفة الصغير الذي حملته في يدي وقلبي حتى صار شابًا فتيًا، تكورت على السرير، خلدتُ إلى نومٍ عميق خالٍ من الأحلام المزعجة، استيقظت وقد عاد وجهي سنوات للخلف، صرتُ أجمل وأصغر سنًا .. أرأيتم أن حبكم يجدد الحياة بداخلي!!

أنزوي في ركنٍ من أي مكان، أنغلق على نفسي كزهرة راغبة في العودة لرحم أمي، أو متمنية لو أنني لم أولد من الأساس، شاعرة بالبرد في عز الحر، ملتحفة بالشال الذي أهدتني اختي إياه، ونسيتنا معًا، أسدُ أذني عن الضجيج بداخلي، والصوت المتردد في علوٍ مستمر ..

صورتهم التي رسمتيها بداخلك هي حريتك الوحيدة للاستمرار في حبهم، ساعدي قلبك ليعيش بسلام، ولا تحاولي البحث عنهم في الواقع، تعاملي من منطلق حبك لهم .. ولا تتجاهلي أنه حب من طرفٍ واحد. لا أحد يسأل عنك، لا أحد يرغب بك في حياته، ولا أن تكوني حتى على الهامش، كونهم كل حياتك، مشكلتك أنتِ ومسئوليتك، حليها أو تحمليها بعيدًا عنهم، بهدوء .. أتفهمين .. بهدوء .. تألمي بهدوء، اِبكي دون

صوت، موتي دون صخب، واظبي على تلك المحاولات، اِفشلي آلاف المرات، حتى تنجحي وتُكتب لكِ النجاة من الحياة بالموت، فقط تذكري أن يكون موتُك هادئًا.

لكن هل نموت موتًا يليق بنا من حيث هو رحيم، خالٍ من الألم، أم موتًا يليق بتجاهلهم وإهمالهم لنا، فيتألمون بحجم آلام عمرنا بدونهم!!

لا تبالوا بانكساري وتلعثم حروفي وكلماتي، فهذا حال العائدين المهزومين في الحب، وأنت عائد من الهزيمة يبدو كل هذ الصخب والأصوات من حولك كطلقات رصاص في جسد ميت. ذات يوم ستخبرهم هذه الجدران عن كل ما حدث، ستبوح بكل الأسرار والآلام، ستخبر الجميع أن دموعهم ليست حقيقية، ستبكيني بحق، وليس لأن من الواجب أن تبكي.

أحاديثي معهم صارت تقطر مرارة وألمًا، ألا يقولون إن الإناء ينضح بما فيه، هذا ما وضعوه ومازالوا يضعونه بداخلي، أن تضطر لتتعامل هكذا مؤلم كذلك، بت لا أعرف السيطرة على ذلك الشعور، وبعدما كنت ابكي من البعد، صار هو الحل الأمثل للبقاء على شعرة معاوية معهم. لقد فقدت كل إحساس بالأمان في هذه العلاقة الحتمية بفعل صلة الرحم، وانسحب ذلك على علاقتي بالآخرين. ذات يوم فاجأوني باقتراح لبيع منزل العائلة الذي أسكنه بمفردي، لم ألمهم على ذلك، واعتقدت الأمر يسيرًا، إلا أنه ليس مجرد منزل، إنه المكان الذي مازال يجمعني بوالدي وأمي. لم أكف عن البكاء برغبتي ورغمًا عني، قضيت سبعة أيام كاملة كل يوم وليلة منها مر كدهر، مهددة بفقدان ما تبقى لي. كل العروض لأن أسكن في منزل آخر بدت أجمل وفي أماكن أفضل، لكن لم تعنِ لي شيئًا، أنهكني التعب أيما إنهاك، إلى أن عدلوا عن الفكرة، وعندها كنت تحطمت تمامًا، للمرة التي لا أذكر عددها، فحياتي لا شيء فيها سوى أن اتحطم، ثم أمكث لفترات طويلة ألملم شتات نفسي، وما أن أتمالك، إلا وتأتيني موجة أخرى تعصف بي.

سيأخذون المنزل
بدا ذلك غريبًا لأول الأمر
إذن سأحتفظ بحجرة النوم والسرير الأبيض والراديو
كانت أمنيته الأخيرة أن يعم الأبيض المكان
وكانت أمنيتها الأخيرة الاحتفاظ بلون شعرها لأنه يحبه

لطالما انسدلت خصلاته الكستنائية بنعومة على الفراش
أمنيتي أن أجد بيتًا بجوارهما
وسأصطحب معي اليمامة وظل القمر
سأرسم بيتًا
وإن لم أستطع سأرسم جدارًا نستند إليه
ستكون يداي ممدودة إليك دائمًا
ترسم بها ما تشاء وتمنحه اللون الذي تحب

السكان الجدد في منزلنا القديم
سجنوا النوافذ والعصافير خلف حواجز زجاجية
وحجبوا الذكرى عن ذلك الهدهد
الذي كان يتناول معنا الشاي كل يوم قبل الغروب

في معنى الخوف مدى الحياة

علم أحدهم ذات يوم عن أن الحارس الجديد لعقارنا مشكوك في أمره، فقال لي إن بعضًا من الشعور بعدم الأمان مفيد، ويمنحني تغيير في حياتي الرتيبة، هكذا يخدع مظهري الهادئ الآخرين، مظهر في حاجة إلى قليل من الحياة والحركة والخوف. بعض الشعور!! اتقصد بعض الشعور بالأمان قد يمنحني قليلًا من النوم الهادئ، أو عدم الارتجاف من أي صوت بسيط لنافذة مجاورة، أو زوال الترقب عندما يحاول أحد من جيراني فتح باب منزله، بينما انتظر إن كان هذا سارق يحاول فتح باب منزلي، فتمر أجزاء من الثانية ثقيلة كدهر.

أتريد مزيدًا من الحديث عن بعض من عدم الأمان ..

مرت سنوات طوال وما زلت أخاف، أخاف من النوم بمفردي، يحرمني هذا منه لأشهر عديدة، أقضي ليالي أنكمش على نفسي، كل الأصوات حولي مصدر رعب، أشعر أنني كائن بحجم نقطة في محيط من الفراغ يبتلعني، فجأة تتسع جدران المنزل، يتسع بأكمله، يصير بحجم مغارة كبيرة داخل جبل بعيدًا .. بعيدًا جدًا عن أي شيء، يتمدد معه الظلام، محتفظًا بقبس ضئيل من نور المصباح الصغير الذي أتركه مضاءً ليلًا، ليضفي على المشهد مزيدًا من الرعب، عوضًا أن يمنحني بعضًا من طمأنينة. أخاف النوم كي لا أحظى بأحلام مزعجة، وأكثر ما يزعج عندما انتفض فجأة للهروب منها، أنظر عن يميني ويساري، بحثًا عن أحد إخوتي، طوق نجاة من ذلك الغرق، لأواجه أكثر الحقائق رعبًا، لا أحد ينقذك لا من الغرق في رعب الحلم، ولا من مواجهة حقيقة أنك وحدك. يبدو الوقت الأنسب للنوم، عند بزوغ النهار، وتسلل خيوطه البيضاء تلون ظلام وظلمة الليل، ولكن سويعات قليلة ويجب أن أستقيظ للحاق بموعد العمل، والنتيجة ليلة أخرى ممتلئة بالخوف خالية من النوم، ليلة تلحق بها ليلة، فأسبوع، فشهر، فنصف عام أو أكثر متكرر الأحداث، تهرم معه صحتي، وينهار ما تبقى من أعصاب مازالت تجاهد.

تعال معي لنواجه خوفًا آخر، خوفي الدائم من عدم اكتشاف جثتي بعد الموت في حال لم يتصل بي أحد لأيام وأسابيع، كيف سيدخل الجيران إذا اكتشفوا رائحة موتي، بالتأكيد سيكسرون الباب، لا أحد منهم يعلم كيفية للاتصال بإخوتي، ولا يرونهم يزورنني. وكثيرًا لا يردني منهم اتصال، أخر أرقام في تليفوني، للبواب، أو السوبر ماركت، أو ربما مكالمة من شخص غريب لا تربطني به صلة سوى العمل، أو قد يكون مندوب مبيعات، أو رقم خطأ، وبالطبع الأرقام التي أتصل بها لا تتجاوز هؤلاء أيضًا. ولو بحثوا في الأرقام

المسجلة سيجدونها مجرد أسماء، دون توضيح لأي صلة بهم، كنت أتمنى أن أضيف كلمة أخي أو أختي بجوار أرقامهم، لكني في مرحلة إنكار وجودي من جانبهم. ذكرني هذا بوقت كنت أعد فيه أوراق لسفر ما، وسألوني في تلك الهيئة الحكومية عن أقارب يتصلون بهم حال حدوث حادث لي، فكرت كثيرًا وقتها وقد تجولت ذاكرتي في كل ما مر بي من أحداث في ثانية أو اثنتين، كرروا السؤال، حاولت أن أجعل إجابتي بلا لون، فأجبت نفس الإجابة التي أقولها حينما يسألني الجيران عن إخوتي، فقلت "كلهم مسافرون"، بعد إلحاح ونظرات استنكار ورفض من الموظف رضخ لإجابتي غير المقنعة على الإطلاق. لكن تحسبًا لأي ظرف طارئ بالفعل ممكن أن يحدث لي، كموت أو حادث، بالبلاد أو خارجها، وضعت بجانب اسم ابن عمي كلمة "أخي"، كان هو الوحيد الذي كان على اتصال بي ويهتم لأمري وقتها، ويعتبر نفسه مسئولًا عني في كثير من الأحيان. خوفي من الموت وحيدة كثيرًا ما كان مصدرًا للسخرية، والاتهام بتعمدي العيش في قلق دائم، وبخاصة عندما ينصحونني بإغلاق باب المنزل من الداخل، وأبادرهم بالقول، ماذا لو حدث لي شيء، كيف ستفتحون الباب، حقًا لدى كل منكم مفتاح، لكن الأقفال بالداخل صلبة صعب فتحها، يتحول الأمر إلى مزحة على الفور "متخافيش هنتصرف"، أو عندما تكون محدثتي في الحوار ليست في مزاج جيد يسمح بالمزاح، تتهمني في ضيق، إنني أتعمد العيش في درامة مستمرة. أي دراما؟؟!! أنا لا أروي قصة فيلم أو مسلسل، أنا أحدثكم عن حياتي، سواء اعترفتم بها وبكل تفاصيلها أم لا، فهي قائمة بكل الاحتمالات. ما رأيكم في خوفي أو ولنقل إحساسي بعدم وجودكم وقت حاجتي إليكم، مهددة أنا في كل وقت لقطع العلاقات بسبب أو باختلاق سبب تافه أعجز عن فهمه.

الشعور بالأمان لم يعد متاحًا بعد الآن..

ماذا عن الخوف من طريقة الموت، تسمعه في قصص كُثر تمر أمامك للغرباء، تطالعك بها يوميًا الصحف ووسائل التواصل الاجتماعي، بل وازدادت اقترابًا عندما حدثت لأحد الجيران في أخر الشارع الذي أسكن به. كأن يكتشفوا جثة أحدهم عاش طويلًا بمفرده، ثم مات بمفرده أيضًا لتحكم عليه الوحدة قبضتها بلا شفقة، قد تمر مثل هذه الأحداث بشكل عابر أمامنا، نقرؤها، ويراودنا شعور بالشفقة لثانية أو اثنتين على الأكثر، إلا أنها تستوقفني بشدة. هذه الأحداث جزء من حياتي اليومية أيها السيدات والسادة، قد أتجاهلها، أو أتظاهر بذلك، لكن آجلًا أو عاجلًا تبقى حقيقة إنها جزء لا ينفصل من حياتي، قد يكون مجرد توقعٌ سيئًا شرير متشائم، لكنه وارد. عندما تعيش بمفردك، ويعلم بل يتأكد من حولك أن لا أحد يزورك إلا في المناسبات، وتسمع عن حالات اقتحام الشقق بغرض السرقة ويعقبها جريمة قتل بشعة، لابد وأن تراودك هذه الأفكار، ورغم أن لك أخوات وأقارب، لكن لكلٍ حال ملهي فيه، فأنت وحيد بالفعل، وتقترب المخاوف

والوساوس منك أكثر عندما يُخبرك أحد الجيران عن ذلك الرجل الوحيد القاطن في أخر الشارع، وقد قتل بغرض السرقة. ومع ذلك أخاف أن أُغلق باب المنزل بالأقفال وأنا بداخله، فهذا يزيد من توتري وترقبي بأن هناك ما يقلق، هناك خطر سيأتي لا محالة، إغلاق الأقفال يعني انعدام الأمان تمامًا.

أطرد كل هذه الأفكار الشريرة والمخاوف لأتمكن من العيش، لكنها لا تبرح أحلامي، فساعات النوم القليلة التي أحظى بها، تمتلئ بمحاولات دائمة لاقتحام منزلي من غرباء، أصحو متعبة من المقاومة، ومن النوم المرهق.

دور برد

أُصبتُ بالبرد الشديد للمرة الثانية في أقل من شهر، لم أكد أُشفى من التهاب الحلق الذي أصابني بصعوبة في بلع شربة ماء. مناعتي ضعيفة كما أجمع الأطباء، والسبب الأساسي الحالة النفسية، التي تجعلني في ضعف ورقة شجر خريفية في يوم شتاء عاصف. ولعل السبب الأساسي في الضعف كالعادة كلمات قاسية صوبتها نحوي شخصية قريبة مني، لم تكن القسوة في الكلمات بقدر ما كانت في الصدمة من الشخص الذي قالها.

ليست المرة التي تقول لي فيها أختي الصغرى صراحة إنها لا تطيق سماع صوتي، أو أن مجرد بدئي بالحديث يثير أعصابها، ولعل هذا يكون صحيحًا، فكثير من يثيرون غضبنا بكلماتهم، يكمن الفرق هنا أنها تقول لي هذا قبل أن أكمل جملة مفيدة أو أقول كلمتين معًا. في أخر مرة انتظرت ساعات طويلة لمحادثتها، تكون عادت من العمل، وكنت افتقدتها هي وأبناءها حقًا، وبدأت بعتاب عادي لعدم اتصالها بي نهائي، عتاب عابر يفعله الجميع، وانطلقت الكلمات كالرصاص البارد الحاد، واختتمت بأنني أتصل في وقت غير مناسب وكلامي غير مناسب.

عفوًا لم أكن أعرف أن الاشتياق له وقت مناسب .. حقًا لقد أخطئت

أنا بخير بعد حديثنا أمس
أنا بخير .. كل شيء يبدو رائعًا
فقط نالت مني بعض الكلمات
كأسياخ جليد مزقتني ببرودة قاتلة
مازال داخلي ينزف قليلًا
سيشفى مع الوقت أو ربما مع بزوغ القمر كل ليلة
لا تقلقي ستحل مشاكلك ويبقى الألم بداخلي كامنًا إلى حديثنا القادم
فقط حاولي ألا تطيبي جرحك بجرح الآخرين

الله لا يسمع كلامهم المؤلم فقط
الله يسمع صوت ألمك

تتناثر روحي بعد كل أذى
فتلملم نفسها لتصنع روحًا جديدة
قد لا تكون الأفضل
لكنها تحمل لمسة من الجمال

إن ارتدت إليك زهور كلماتك ممزقة بفعل القلوب القاسية
لملمها
احتو أوراقها في كتاب قديم
انسها
سوف يتعافى قلبك
فذاكرة القلوب ضعيفة
وبقايا الأخضر النابتة بداخله تزهر من جديد
ستثمر البذور
وتستعيد الأوراق سحرها

حافظ على قليل منك في قلب أحبك يومًا
كن في قسوتك هين لين
لا تدع فرصة لقلب يرحل عنك
دون أن يدعو لك
واحذر دعوة القلب المكسور

مازال داخلي ينزف من عواقب خطأ "غير المناسب"، علمت أن لاحتمالات عديدة لن أرى أطفالها – الذين أعتبرهم أطفالي– إلا ربما مرة أو مرتين كل عام، وقبل ذلك حرمت من أطفال أخي، وجاءت مناسبة عيد الأم. وها أنا ليس لدي أم ولا أنا أم، وحرمت من الأمومة المستعارة أيضًا، لقد أسهبت كثيرًا بيني وبين نفسي في وصف أهميتهم لي، وأنهم أسرتي، وأطفالهم أطفالي، وليس لي طلب سوى البقاء على خيط رفيع من التواصل، به الحد الأدنى من الود، لكن على ما يبدو أن هذا طلبًا صعبًا.

لا يعرف أحدهم ابدًا هذا الشعور المزدوج باليتم والخواء وفوات الأوان، صرتُ في أواخر الخامسة والأربعين، يعني لا أمل في الزواج أو الإنجاب، ولم يعد لدي استعداد ولا قوة جسدية أو نفسية لبدء حياة جديدة، فأمنيتي حاليًا أن تنتهي حياتي بسلام وهدوء.

نعود لدور البرد المخلص إليّ، والوحيد المتمسك بي في هذه الحياة، أريد شراء بعض الأشياء للطعام، وأريد دواء، لكن صوتي ضعيف بدرجة لا أقوى فيها على التحدث إلى السوبر ماركت لطلب ما أرغب، بل والصيدلية بجواري ليس لديهم خدمة التوصيل للمنزل. ربما صمتي الطويل أيضًا سلب مني قدرتي على الكلام فقد يمر يومًا كاملًا أو يومان دون أن أنبث ببنت شفة، حتى إنني فقدت رغبتي في الحديث، وصرت أفضل الكتابة، أرد على من يهاتفني برسالة مختصرة تفيد عدم قدرتي على الكلام بسبب المرض، نسيت صوت الحروف ورنين الاسماء ينطلق من قلبي. نعم كل ما يمكنني فعله هو الكتابة، فهي لا تحتاج صوتًا ولا جهد جسديًا، بالطبع يجعلني هذا أمارس هواية النشر على الفيسبوك، فيراني أصدقائي وأقاربي بخير حال، أنشر قصصًا وصورًا صورتها من فترة توحي بأنني في منتهى الحركة والحياة، وتؤكد فكرة إخوتي عني بأنني لستُ بالضعف الذي أتحدث عنه. كثيرًا ما أكتب عكس حالتي، كأن أقول إنني أتناول الإفطار بصحبة من أحب، والحقيقية أنني أضع صورهم الفوتوغرافية أمامي وأشاركهم قهوة الصباح، أو أصف مدى فرحتي في لحظة ما، بينما أبكي من انتصار الوحدة علي، وخلقها مساحة جديدة من الخواء والألم بداخلي.

في أخر مرة مرضت فيها هاتفتني أختي الكبرى بالصدفة، وكنت أتحدث بصعوبة، وقالت لي جملتها المعتادة "ما اتصلتيش بيا ليه كنت ساعدتك واهتميت بيكي"، وبالفعل اتصلت بها هذه المرة منذ يومين، قبل أن تسوء حالتي كما هي الآن، فلم تجب اتصالي ولم تتصل بي حتى الآن، بالطبع سيكون الرد المعتاد أنها لم تر اتصالي، وأنها منشغلة، ولا داعي لأن أكون بهذه الحساسية. أقدر تمامًا كل أعذارها وأنها لم تر الاتصال وانشغالها، وأن في أغلب المرات التي أتحدث إليها علي أن أُعيد الاتصال أكثر من مرة وبأكثر من وسيلة لنتحدث بعد محاولاتي بيوم أو أثنين، لا يهم، أقدر انشغالهم تمامًا، المهم أن يكونوا بخير.

لكنني متعبة، لا أستطيع معاودة الاتصال، لا يمكنني التحدث حقيقي، وأخيرًا كرامتي تؤلمني من كثرة التوسل، وأظن هذا يزيد من مرضي، فكل مرة أعاود المحاولة أفقد جزءًا منها، ويفقدون الاحساس بي، إلى حد كاد أن ينعدم كوجودي في حياتهم.

لعل هذا الموت بالحياة الذي يتحدثون عنه !!

أحدهم في انتظار إنهاء المكالمة المؤجلة
إكمال قصة لم يبدأ في روايتها
فالطرف الآخر كان منشغلًا
اكتفى برد السلام وأنهى حوارًا لم يبدأ
"سأتصل بك لاحقًا" من أكثر الجمل التي يسمعها
فيظل ينتظر .. وينتظر إلى أن ينسى حكايته
أكانت عن شيء آلمه، أحزنه، أضحكه
لم يعد يتذكر
لم يعد ينتظر
ماتت كل الحكايات
وهذا شيء جيد
فلنبدأ من جديد
ونتوقف عن الاتصال

نخاف محادثتهم يلمحوا الدمع في صوتنا
والخوف الحقيقي أن يفسحوا مجرى للدمع يحرق القلب

يتعب قلبي من هجر أبنائه وقسوتهم
ينفطر
يذرف دمًا حارًا
جف الدمع وهو يرويهم حتى صاروا كبارًا
بنين وبنات وأحفادًا
غرباء وأقرباء
تمر علي عشر سنين من البرودة في الليلة الواحدة
كلمة تُحيني وتشفِ اشتياقي

تروي حنيني

زرع فينا والداي الكرامة منذ الطفولة المبكرة، بدأت بسلوكهما معنا، وعدم تكرار الطلب مرتين، ولو كان شربة ماء، فيكفي أن يطلب منا أحدهما هذا، وإن لم نجب في التو، يقوم بنفسه ليشرب دون كلمة أو نظرة عتاب. يكفي أن تراه أمامك ينهض من مقعده لكي لا يسألك شيئًا، وكان بالأمر العظيم حقًا، أو تطلب مني أمي إعداد كوب شاي لإصابتها بصداع حاد، وإن لم افعل وقتها، لا تقبله مني، ويظل رأسها المربوط بإيشارب من قبل الغروب لمنتصف الليل يئن في صمت بعيون ذابلة. أذكر أكثر المواقف تأثيرًا، عندما كان يرفض أبي تمامًا أن نقبل يده حبًا واحترامًا، كما كان يفعل مع والده، وكحال باق العائلة ممن في أعمارنا، سألته كثيرًا لماذا؟!! أجاب مرة واحدة بأنه يرى ذلك ضد الكرامة، جادلته على غير العادة، بأن هذا دليل للحب، ولا يوجد كرامة بين المحبين، وتنعدم الكرامة بين الأبناء والوالدين، أجاب بتأكيد وهو يضغط على كل حرف من كلماته بأن الكرامة موجودة طوال الوقت ولو بدرجات، هي عزة النفس، وإن أذللتها فلأتحمل، وهذا ما يريده لنا "عزة النفس". ولعل هذا ما جعلنا نبدو من أثرياء العائلة رغم أننا كنا أرقهم حالًا، لكن كما يقولون نشعر بالشبع دومًا، ولا نتطلع لمن يملك، لأننا نملك أكثر .. "عزة النفس".

حقًا اضطرت للتنازل عن جزء كبير منها، بتكرار إلحاحي على أن أكون في حياتهم، وتعرية مشاعري تمامًا أمامهم، ومدى حاجتي إليهم دون أن أكون مزعجة، لكن بدت مشاعري كلحم رخيص، أداروًا وجهوهم وقلوبهم له. حاولت التواصل كثيرًا، وإعادة الخيوط التي تتمزق، دون جدوى، صارت دموعي مملة، ورؤيتي أو مجرد تواجدي يشعرهم بمسئولية ما، ويجب تبرير التخلي عنها، وكان بمزيد من القسوة إلى أن تبدر مني أهة ألم، وتكون حينها سببًا مناسبًا للبعد عن تلك الشريرة المتظاهرة بالألم. حاولت الصمود، كرامتي ماتت في كثير من الأحيان، بل ذاقت روحي الموت وعادت ولطالما فقدت جزءًا منها عند كل موت، بقي لي جزء صغير بعد أن صار رفضي بكلمات صريحة مباشرة .. لو تركته لن يُعيدونني إليهم، ربما سيقتلوننا أنا وهو .. لتبقى أسطورة الموت بالحياة.

أعود لدور البرد الرفيق المخلص .. سوف أعد حساء وأتناوله بمنتهى السعادة والرضا، لأنني أستطيع التحرك والاعتماد على نفسي، وهو أمر لو تعلمون عظيم، وأدعو ألا أحتاج لأحدٍ يومًا ما.

تناول وجبة ساخنة أو باردة مهما كانت مكوناتها بسيطة شيء رائع بحق، أنت بين أربعة جدران، في بيت نظيف مستقل وحدك، حر في أبسط قرارتك، اختيارات النوم والطعام ملكك وحدك، كلها أمور عظيمة حقًا، تهون عليك صعوبة ابتلاع فتات الخبز، لنفس الأسباب ..

أنك وحدك .. لا يشاركك أحد

زي بياع الورد وأنا باشتري ودهم
بالمسه وفي ايدي وشم من عطره
لكن عارف إن مالي فيه نصيب
باغزل حروف الليل
شال يضلل على كتفي في عز البرد
وعقد فل أزين به كف متحني
من أخر سلام بعطر الورد

لا أحد يقرأ
وهذا شيء جيد
فما أكتبه يجب أن يظل سرًا بيننا
قد تكون محظوظًا بأن من تكتب عنهم لا يقرؤن
فلك أن تبحر في مشاعرك تجاههم دون تردد
متحررًا من أطواق الكرامة والخجل
أو الخوف من فقدانهم
كيف تفقد ما لم تقتنِه من البداية

وحـــــدة

هي ذلك الشيء الذي يجعلك تأخذ الأمور بشكل شخصي، إذا ابتسمت لك سيدة مسنة بدافع مشاعر الأمومة، أو أشفق عليك بائع الذرة وأعطاك أكثر مما دفعت، وحرص أن تتناولها طازجة ساخنة، أو نظر إليك طبيب الأسنان بشفقة عندما بكيت قبل أن يقترب منك فاقترح تأجيل موعدك...

صرتُ أتعجب من صديقاتي اللاتي ينتظرن أحدًا ليصطحبهن لشراء الملابس أو تناول الإفطار، ماذا لو اصطحبتِ نفسك وذهبتِ إلى حيث تريدين، وفعلتِ ما ترغبين، على الأقل لن تخذلك يومًا ما أو تتخلى عنك، وإن خذلتك، لن يكون ألمك بقدر ما يخذلك أحد وثقتِ فيه ومنحته كل الأمان بقدر شعورك نحوه. كمن يترك يدكِ في عرض البحر فجأة وأنتِ لا تعرفين السباحة، إما ستغرقين، أو تقاومي للبقاء على قيد الحياة. والمقاومة غريزة أصيلة في البشر، فليس كل من يعافر للنجاة يرغب في الحياة بالفعل، وعندما تدركين تلك الحقيقة أثناء الغرق، وتكفي عن المقاومة، ستتحولين إلى شخصٍ راغب في الموت، شخص ينتحر، والانتحار فعل يكرهه الأب. فعليك الآن بعد إدراك هذه الحقيقة أن تقاومي لإرضاء الأب، وليس لأنكِ ترغبين في الحياة، قد تموتين غرقًا أثناء انشغالك بتلك الأفكار، لكنك متِ غريقة رغمًا عنك، لم تموتي منتحرة. خيط رفيع من الزمن والفكر بين الحالتين، بين ما يجعلك مؤهلة للوصول إلى الفجر في النهاية، أو الحرمان من رضا أبي الكبير، بل وإثارة غضبه بفعل أكثر ما يمقت.

يبدو الأمر مضحكًا لحد أن العين تدمع عندما تشتكي لي أختي –أيضًا– من إنها لا ترغب في التنزه بمفردها، ويشعرها هذا بالاكتئاب والحزن الشديد، ويجب عليّ التعاطف من خوفهن من الوحدة عند التنزه والتسوق، أو أكون بلا قلب. ضحكاتي العالية ليست للسخرية من شكواهن، فأنا أعلم تمامًا كيف يقبض هذا الشعور على الروح، إنما تتزامن هذه الكلمات الشاكية مع ذات الوقت الذي سئمن فيه من بكائي بصمت وصوت عالٍ مما تكون عليه حياة غارقة في الوحدة، وليست بضعة ساعات أو أيام، فهي غنية بالأشكال والألوان من الحزن والخوف والاكتئاب، وعليك المرور بكل درجاتها، حتى الوصول إلى المراحل المتقدمة منها. تبدأ بالاعتياد ثم الإدمان، ثم التوحد والتماهي معها، إلى أن تكاد لا تفرق ما بين أنها شيء مؤلم، أم أنها الشيء الوحيد الذي صار يحقق لك السعادة بالبُعد والاستغناء عن كل مظاهر الحياة!!

هل جربت ذلك الشعور الذي يبدأ بجلوسك على محطات الباص للاستئناس بمن حولك، أو النوم بجوار باب الشقة تتنصت إلى أصوات خطوات الجيران صعودًا وهبوطًا لتشعر ببعض الأمن كي تتمكن من النوم، إلى أن ينتهي بك الأمر للخوف من النزول من الشقة كي لا تفقد تلك المساحة الآمنة التي نسجتها حول نفسك...

كيف تفهم أو يفهم أي منهم معنى الوحدة، في خضم حياتهم المتكدسة بالعمل والأزواج والأطفال، وكثير من المواعيد، وصخب التليفونات من كل الأطراف في آن واحد، يتوقون إلى لحظة سكون واحدة، يتطلعون لخمس عشرة دقيقة من الوحدة والهدوء. لا ألومهم على انشغالهم الدائم، بل كثيرًا ما أشفق عليهم، لأنهم يفتقدون الاستمتاع بكل ما حولهم، ويكثرون من الشكوى، ينظرون إليه ليس كنعمة، بل كعبء يهرعون للتخلص منه. فقط أطلب معاملة بالمثل، أن يقدروا معنى تلك الحياة المغايرة لحياتهم المزدحمة الصاخبة، وإن كانوا يعرفونها أحيانًا عندما يمر على أحدهم يوم هادئ، في حالة تصادف سفر الزوج في عمل، وقضاء الأبناء يومًا كاملًا في رحلة، ويكون لديهم عطلة من العمل، لا تمر سويعات قليلة إلا وتتوالى على المكالمات عن الشعور بالزهق والملل والوحدة وعدم الرغبة في الطهو وتناول بواق الطعام أي شيء يسد الرمق. لكن في نهاية اليوم على الأكثر سيفتح عليهم الباب أحدهم، وتعود الحياة إلى المنزل من جديد، لا أحد يريد أن يصدق هذه الحقيقية، أنك لا ولن تنتظر أحد يفتح عليك الباب في نهاية اليوم أو الأسبوع، أو لأعوام حياتك كلها، لا أحد سيهزم وحدتك.

وللحقيقة لم يعد يفرق معي إن صدقوا أو لا .. فلن يغير موقفهم أي شيء

لدي أوقات فراغ تكفي لسماع كائنات العالم أجمع، لكنني سئمت لعب دور المناديل الورقية (الكلينكس)، حيث يستخدمها الفرد يمسح بها ما كل ما هو ملوث ثم يُلقي بها إلى أبعد مكان أو أحقره. لا يعني ذلك أنني سأكف عن سماع مشاكل أو حكايات من يلجأ إلي، فلم أستطع الوصول لهذه المرحلة من القسوة، فقط كنت أحاول تقليص مساحات الكلام بيننا، لا أستطيع أن أطلق عليه حوارًا لأنه يكون في الغالب حديثًا من طرفٍ واحد، ما إن يبدأ حتى تنسكب في وجهك الحكايات كملابس تتدافع من دولاب مكتظ ومثقل بما فيه. وما إن تنتهي قذيفة حكايتهم، ينتهي كل شيء، وتصير الردود مقتضبة، تلفظ أنفاسها الأخيرة، استعدادًا لإنهاء الحديث. ليس هذا بجديد على الكائنات البشرية، وإن تزايد بشكل مريع

ومؤلم ومفعم بالأنانية الفجة، ودومًا ما يوجد الطرف الأضعف المُستقبل دون منحه فرصة للإرسال، دومًا يوجد منديل كلينكس.

كم من المرات عدتُ خالية الوفاض، كم من المرات رغبت مشاركة أحداث يومي كبيرة كانت أو تافهة ولم أجد أحدًا وسط كل هذا الزحام. كل ما تمنيناه ممن نحب قليل من العدل، لكن المسافات تتسع، لم يعد بمقدورهم اللحاق بنا، ولم نعد ننظر للخلف، فكل الأحاديث المُعلقة هي حافة الهوية لأحدهم إلى أن تنتهي ...

الدوائر تضيق عليّ، تدفعني بقوة نحو براح أبي الكبير، أسبح ضد التيار، فخلقتي تُجبرني على التعامل مع الناس لا اعتزالهم، لكنهم هم من يعتزلونني. وكأنه ضيق وأغلق السبل أمامي لكي يكون هو ملجأي الأوحد. ذلك شيء جيد نعم.. لكن الوصول إليه يتطلب السير في طريق صعب ومؤلم، أنت تسير ضد التيار بكل ضعف وأحيانًا كثيرة بكل انهيار، وعندما تصل تكون منهك القوى، في حاجة إلى وقت كافٍ للتعافي، والنظر فيما وصلت إليه، واكتشاف الجمال الكامن بداخله.

صوت الوحدة مزعج وعال بشكل غير محتمل
أصم أذني
أنشغل عنها
لا يفيد
أجلس على سلم المنزل أحيانًا
متخذة من باب شقتي حجابًا
يسترني من العيون المتسائلة
أو تلك التي ستتهمني بالجنون
وأي جنون بعد ضجيج يعتصرك من صمت لا يهدأ

الجنـــون

ها أنتِ دخلتِ في مرحلة الجنون، وما زال لديكِ بعض القدرة على مقاومة الانزلاق في هذا البئر العميق، أنتِ على الحافة تمامًا، نسمة هواء خفيفة بإمكانها دفعكِ للسقوط. الأمر ليس بالصعوبة التي نتصورها، بل بمنتهى اليسر من الممكن أن يتحول أعقل العقلاء إلى مجنون، يتخلى عنه عقله لعجزه عن مواجهة كل هذه الحقائق. سيتهمني الأطباء النفسيون بالجهل، فليس في الأمراض النفسية والعقلية ما يسمى "بالجنون"، إنما هي ... أعلم أعلم يا سيدي الطبيب، أتحب أن أسرد لك قائمة الأمراض الذهانية والعصابية، ليست هذه محاضرة في الطب، دع هذه التفاصيل الدقيقة لقاعات المحاضرات، أنت في الغالب ستنصحني بالتزام الهدوء، وتصف لي دواء راخ للأعصاب والعضلات، ومُنشط لمراكز السعادة في المخ، فيجلب لي قليل من القلق، وكثير من النوم، وابتسامة بلاستيكية ليس لها أي علاقة بالشعور بالسعادة الحقيقية، كل شيء سيكون مزيفًا، حتى الابتسامة.

لن أخفي عليك لجوئي لكل هذه الوصفات الطبية بعد إصابتي بالانهيار العصبي عقب رحيل والدي، هكذا وصفه الأطباء "انهيار عصبي حاد"، ووصفه الحقيقي انهيار حاد للحياة بأكملها، انهيار جدران المنزل، أنت تحيا الآن في الخلاء تمامًا، بلا هدف ولا معرفة، بلا حول ولا وقوة، قالوا لي إنني كنت أكرر جملة "هاعمل إيه دلوقتي؟!"، أنا أضعف فرد في هذه الأسرة، وزاد من ضعفي خوف والدي المبالغ فيه عليّ أكثر من أختاي الكبيرة والصغيرة، مما سلبني أي قدرة على المواجهة.

لكن أبي الكبير كان يعلم بالتأكيد ما لا أعلمه عن نفسي، وإلا لما وضعني في هذه الأمواج العاتية التي عصفت بي، ولم تتوقف الأمواج عن العلو والتوحش، ولم أتوقف عن المقاومة بمنتهى الضعف، وأظن أنني نجوت، بما أنني لم أمت، ما زلت على قيد الحياة.

لكن هل النجاة تدل على الحياة؟!!

أظنني وصلت لمرحلة عدم الشعور بالألم، ربما أُصبت بالخدر، فالموج ينزل بسرعة من قمته، والقمة ما هي إلا لحظة، تعيشها بعيدًا عن الأعماق، وسط بحر لا يعرف الأمان.

بخير !!

سأخبرك بالسبب الحقيقي لتخلفي عن مواعيدي
ربما أكون غير قادرة على تحمل تلك الابتسامة التي تخبر الجميع أنني بخير
أو أكون بخير لكن دون القدرة على مواجهة الآخرين
ربما أود التواجد حيث لا يعرفني أحد فينفذ ببصيرته ويفتح كل الأبواب المغلقة بداخلي
ربما الكسل عن إرتداء ملابسي والتفكير في أن تكون مناسبة متناسقة
أو أن فكرة تغيير ملابسي تتطلب جهدًا أكبر مما أحتمل
ربما تعودت الاختلاء وصمتي لا يشاركنا أحد
أتحجج دائمًا أنني مريضة
وأشعر حقًا بمنتهى الألم حد زيارة الطبيب
الذي يمنحني صفحة بيضاء فارغة من الوصفات الطبية
يرسم فيها ابتسامة صغيرة
ويخبرني بأن مهمتي وعلاجي العمل على استمرار هذه الابتسامة في النمو وحمايتها من الذبول
ولا بأس من الاستئناس بثلاث نجمات يُزّين سواد الليل في انتظار شروق جديد للقمر

السن

لم أعد أخجل من الإطراء على أحدهم، كنت أتجنب هذا فيما مضى، لكي لا يساء فهمي، ويظن من أمامي أنني أحمل له مشاعر خاصة. لكن فات الأوان يا صديقي، لقد نما ساتر شوكي زمني تذكرني وخزاته بأنه فات الميعاد، أقل فارق زمني بيني وبين من أقابلهم خمس سنوات، وإن بدوت أصغر منهم بأكثر من هذا الفارق الفسيولوجي، إلا أنه يبقى حقيقة، كقنبلة موقوتة لو اقتربنا منها أكثر ستنفجر بالتأكيد، ولن يصاب أحد غيري. أما الطرف الآخر سيذهب متأثرًا بهذه الجميلة التي فات أوان قطافها، المسنة في حكم المجتمع، قد يلتفت إلى الخلف مسترقًا نظرة أو اثنتين لهذه المحطمة، بينما تكون جروحها أكبر من أن تداويها الأيام، والسنون، إن تبقى لها سنون.

إنني أُعاقب على ما لم أختره وما لا يمكنني تغييره، فقد ذهب مع العمر كل شيء، الزواج والإنجاب، بل والرغبة في حد ذاتها بكل ذلك. تبقى العمل فقط، وها هو يذهب لأنني تخطيت على الورق سن الشباب، فماذا أفعل الآن!! أأقتل نفسي؟!!

لكن هذا فعل يغضب أبي كثيرًا ولا يغفره، يعده وفقًا للعقد رفضًا لقراراته واختياراته لي، لا أختار ميلادي ولا موتي ولا حياتي، فماذا أنا فاعلة في هذه الحياة؟!!

- أنظري أنتِ لا يمكنك الزواج الآن وبالطبع ولا الإنجاب، فقد فاتك الكثير، بقدر فوات عمرك ..
- إذن .. فماذا تفعل هنا وما ستقدمه لي بعد فوات الأوان؟! حقًا إنك تثبت لي بعد كل نقاش أنني لا أحتاجك.
- تذكري يمكنك التراجع في أي وقت عن العقد.
- وماذا إن رجعت؟؟ هل أي شيء يمكنه تعويض العمر الذي يمضي؟
- يمكن أن تعيشي حياتك كما يحلو لكِ، مستمتعة بكل ما بها، بعيدًا عن قيود التقاليد والحلال والحرام.
- لكنني بالفعل أعيش كما يحلو لي، ولم أعد أشعر بأي قيود، القيد الحقيقي أن أعيش مُتعًا مؤقتة للحظات، أشعر معها بالتعاسة لأيام وشهور. بضاعتك مؤقتة بقدر ما هي براقة، كاذبة كالسراب، ستتبرأ مني لحظة وقوعي في أسرك، أنا على يقين من ذلك. ألم تسمع عن حكاية القطة!؟ التي تأكل آمنة مطمئنة من طبقها المخصص لها في مكانه الذي تعرفه، حيث وضعه رب المنزل، لكنها تكون

منزعجة بشدة وخائفة، ودائمة التلفت حولها إذا قفزت فوق المائدة وهمت بتناول الطعام، هكذا يكون الحال إذا أقدمت على تناول ما توهمني بأنك تقدمه لي، بينما هو ليس لي.

كل شيء يبدو مثيرًا إلى تلك اللحظة التي تتناول فيها ثمرة من الشجرة المُحرمة، فتلقي بك السماء إلى سابع أرض..

- حسنًا .. دعي الفلسفة تقنعك، أنا لستُ في حاجة لإقناع، وكأنك تتحدثين إلى نفسك بصوتٍ عالٍ لتثبتي أنك الأصح، وإذا كنتِ كذلك فلمَ الشكوى والتذمر أيتها المطيعة الملتزمة بالعقد.
- لأن هذا جزء من العقد أيها الجار البائس.

مهلًا علي أيتها الأيام حتى أعتاد العمر الجديد
أظنني الآن في مرحلة الكهولة
وإن عاند شعري السنين
يتحداها بلونه الصافي من أي بوادر للشيب

شعري يرفض الأبيض
ويرفض التنازل عن بعض خصلاته
كلما قصصته
ينمو ليقف عند تلك النظرة
حيث تذوب الطيبة مع الشجن
وعيناك تمنحاني اعتذارًا لا أعرف سببه
كل شيء يعود إلى ذات اللحظة
الراديو .. لمسة عطرك على ملابسك
حتى الستائر القديمة عادت كأن الزمن لم يمسها بيوم
بين طيات ملابسك التي ذهبت للمجهول البعيد
يكمن ما بقي لي من قلب
فليستقيم خط العمر في ذلك التجويف الفارغ بصدري

لماذا!!

تبدو الأمور أكثر رعبًا بمجرد أن تزورك كلمة "لماذا"، فتتسلل إليك كل الأسئلة المزعجة، التي لا ولن تجد لها إجابة، وكل محاولاتك لتلفيق إجابات شافية لأسئلتك تبوء بالفشل، كل محاولاتك إقناع نفسك التي ماتت سلفًا قبل أن تشرف منهم محاولة وحيدة على إنقاذك، تجعلك تعود أدراجك خائب الرجاء، فاقد الأمل، بصعوبة بالغة تلملم ما تبقى من شتاتك، وتكمل طريقك في الطاعة، لأن بداخلك لا يمكنه الفرار، ولا يجد سبيل يمكن الفرار إليه، تتذكر محاولاتك الفاشلة لأن تكون شخصًا أخر، فلا تتغير أقدارك ولا تكف ال "لماذا" عن التردد بداخلك، ها قد التزمت بدورك في العقد ولم يتغير طريقك!!

لماذا تعيش من هن أقل طاعة مني، بل المقبلات على المعصية بدوام كامل في حياة تبدو لي سعيدة، مال وزوج وأولاد، زينة الحياة الدنيا، يبدو حظها مكتمل الأربعة وعشرون جزءًا، موزعين بتناغمٍ كامل؟!

يأتيني ذلك الصوت قائلًا:

- إنها قد لا تمتلك السعادة..
- أليس أولادها سعادة؟ أو أموالها سعادة؟ أو زوجها سعادة؟!
- ربما زوجها يخونها ويهملها، وأولادها ليسوا معها، ذاتها نفسها ليست معها، تشعر بالاغتراب والغربة باستمرار.

- كثير من المبررات والكلمات ستحاول طرد فكرتك عن سعادتها، لنعد إلى نقطة البداية، إن حظها ليس مكتملًا كما يبدو.. حسنًا سيدي سأكف عن ال "لماذا"، رغم جوابك غير الشافي ولا المقنع، ولا ينطبق عن أناس أعرفهم بعينهم، منهم من أعرض عن هذه الحياة –المكتملة الأربعة وعشرين جزءًا– برغبته، ولم يشعر بكل ما بها، ومنهم من يتمتع بهذه النعم.
- وماذا عن من أعرض عن كل زينة الحياة الدنيا تلك، أو من لم يشعر بها .. أترين أنه بهذا الفعل والفكر مكتمل الأربعة وعشرون؟!

إن عدم رؤية مصادر السعادة المحيطة بنا يفتح أبوابًا لحيرة لا تنتهي، بل قد يُعد عقابًا وابتلاء، فقدان البصر والبصيرة. لئن يرى الشخص في أبسط ما حوله سعادة، نعمة لا تضاهيها نعمة، تقوده إلى الرضا والامتنان، وهما مصدرا النور الرباني في القلب.

- أليس هذا مُثيرًا للدهشة، أن تُخلق حول الشخص كل أسباب السعادة ولا يراها ولا يشعر بها، أيكون هذا اختياره، أم جُبلَ عليه؟! فتنتصر نفسه اللوامة وتسيره أينما تريد، وهو لا حول له ولا قوة.
- كل منا في حاجة من وقت لآخر إلى محطة توقف أثنا سيره، يستند إلى شجرة، يفتح عينيه جيدًا، يراجع كل ثرواته كبيرة كانت أو صغيرة، ما يمتلكه من مال وأطفال وأصدقاء وأهل، وقد يحدث هذا التوقف برغبته أو رغمًا عنه. لكن في كل الأحوال يجب عليه أن يقيم ما يمتلك وما يريد، ما يسعده، ما يطمح إليه، عليه معرفة أي الطرق سيختار، أم يتوقف عند هذا الحد.

فلنفرض أن هناك زوجين حياتهما مستقرة، لديهما أطفال، وقدرٍ كافٍ من الأموال بما يوفر لأسرتهم الصغيرة حياة أكثر من كريمة، حياتهم شهدت تقلبات وعواصف إلى إن استقرت، وما أن كادت تركن إلى شاطئ هادئ، وقد حان الوقت لأن ترسو سفينتهم، وترسخ أقدامها في أرضٍ صلبة، تستبدلها بالرمال التي لطالما عصفت بحياتهما، حتى طرأ عليهما جديد... وصلت لهما رسالة بعمل جديد، لكن هذا العمل يتطلب سفر أحدهما لفترة طويلة خارج البلاد، والآخر سيظل مكانه، فرصة سفر لا تعوض، كانت حلم من جاءت إليه وشغله الشاغل من بداية حياته، من قبل وجود شريك للحياة وأطفال، كان شيئًا سعى إليه طوال الوقت، وها قد جاء، يحمل معه كل الأماني والأحلام الملونة والمؤجلة. وهذه هي الحياة ما أن تبدأ في الاستقرار والاكتفاء بما حولك، حتى يأتيك الإغواء من أكثر مواطن ضعفك وحرمانك، تلوح لك بالشجرة المحرمة، التي تفقدك الشعور بكل ما لديك، ليحل محلها رغبة وشهوة جنونية في هذا الشيء الوحيد الذي مُنع عنك.

ماذا تفعلين لو كنتِ مكانهما وعليكِ الاختيار؟؟

تمهلي ولا تطلقي العنان لأفكارك ودهشتك بهذه التفاحة الشهية، تذكري أنها فاكهة من الشجرة المُحرمة، قد يبدو الخيار المثالي في تحقيق حلم عمرك، لكنك لم تعودي بمفردك كما كنتِ وقت تمني هذه الأمنية. صار هناك شريك حياة، وأطفال، ومنزل ما زال في أول رحلة التعافي من آثار عواصف من زمن ليس ببعيد، حفرت شروخًا، وكادت تهدم جدرانه، لديك حياة كاملة يشاركك فيها آخرون، عليكِ أن تضعيهم في الاعتبار.

سأختصر الحكاية، وأوفر عليك حيرتك، لقد اختار الزوجان فرصة العمل بالطبع، فقد داعبت أفكارهم كل الآمال والطموحات واعدة بحياة مختلفة تمامًا، وبدأت الترتيبات لما ستؤول حياتهما إليه، ومرحلة جديدة

في بناء منزل لم يكن ذو بناء قوي من الأساس، كان كالأسنان اللبنية لدى الأطفال، أسنان لا يمكنها تحمل أكثر من شربة حليب، أو طعام لين سهل، كجدران من القش، كقصر من الرمال يمكن لموجة صغيرة أو قليل من الرياح أن تعصف به. بالفعل سافر أحدهم، وظل الآخر، ولأن الزوجة هي التي سافرت، كان من المنطقي أن تصطحب الأبناء، فعملها سيوفر لهم مدارس، وتأمينًا صحيًا، ومنزلًا مريحًا، وظل الزوج مع وعود منه للحاق بهم قريبًا والبحث عن عمل بنفس البلد، لكنه كان قد وصل لمركز مرموق في عمله، من الصعب تركه للبدء من جديد، في بلد غريب، مجرد مرافق لزوجته.

أظنكِ علمتِ نهاية القصة ..

لم تنتهي بالسفر فقط، بل بالطلاق، هدموا المنزل، واحتفظوا بالعمل، والأموال، بل صار كل منهما يجذب الأطفال إليه بمزيد من الهدايا الباهظة الثمن، صارت لهم حياة رغدة مرفهة، لكنها لا تجمعهم، فلكلٍ حياته، وقد حقق طموحاته على حساب الآخرين، وأول من دفع فاتورة هذه الطموحات، هم الأطفال.

- لكن هذا قاسٍ، فليس من الخطأ أنهما سعيا لتحقيق طموحاتهما، وهذا ما يحثنا عليه أبي الكبير طوال الوقت، السعي.. والسعي طالما نعيش في الحياة.
- حقًا، يحثنا على السعي دومًا، لكنه يحذر وينهى عن الأنانية، ينبهنا أن كل وقت تختلف أحلامه وأمنياته عن الوقت الآخر، ولو حضرت أمنياتنا المؤجلة، علينا نفكر في صورتنا التي أصبحت كاملة، ولم يعد ينقصها تلك الأمنيات، وإلا ستصبح كلوحة يفسدها خط زائد، أو لون لم يعد له حاجة، وإن ظننا أنه سيمنحها غنى أكثر في الألوان.
- ولماذا لا تأتي الأمنيات في وقتها؟
- لأنها أحيانًا تكون غير مناسبة لنا، ونحن لا نعلم.
- ها قد عدنا لنقطة البداية، افتراض السيء والأسوأ دومًا كمسكن لما لم نختاره.
- بل لأن كل مرحلة في الحياة لها ما يناسبها، مثلًا هل يمكنك إطعام طفل رضيع نفس طعام الكبير؟؟ بالطبع لا، ستحدث له مشاكل قد تودي بحياته، وعندما يصير بالغًا لن يشبعه طعام الرضيع، هكذا الأمنيات والأحلام.
- أتعني أن أبي الكبير يريد منا النضوج، والتعلم كيف نصل للتحكم في شهواتنا وتهذيبها بوأد أحلامنا؟!!

- بلى، وهذه هي الغاية، لكن ليس بوأد الأحلام والأمنيات، لكن بتشذيب أطرافها كما تفعلين مع الزرع في شرفتك، ألا تقومين أحيانًا بربطه في خيطان لتوجهيه للأعلى أو إلى مكان أفضل؟ تتحكمين به وبمصيره لا شيء إلا لأنك أنتِ من زرعته، ماذا لو تركتهِ ينمو على هواه؟!
- سينكسر ويتحطم، ويذبل.
- وهكذا الأحلام والأمنيات، هكذا الكون بأسره.
- لكن هذا مُتعب ومُرهق عن جد، مُثير للجنون.
- ربما هذا لا يتحمله الجميع، أو يفكر فيه بنفس الدرجة، لكن هذه حقيقية من حقائق الخلق، والمدونة بالعقد.

أظنني وصلت لما تتحدث عنه، اعتدت تأجيل استمتاعي بالأشياء، أو ربما نسيته، كأن اظل أشرب الشاي والنسكافيه في ذلك الكوب ذي اليد المكسورة، رغم وجود كوبين آخرين جديدين، أتحمل جرح يدي بفعل احتكاك أصابعي بطرف الزجاج المكسور، لحد أنني آلفه عن أن أغيره بكل يسر وسهولة، وهكذا نعتاد الحياة الصعبة وكأن ليس لدينا أي خيارات.

في حضرة الملائكة

بعد أن كنت تلتمس دعاءهما لأن تصبح ابنًا صالحًا، صرتُ تدعو لهما بالرحمة والمغفرة، تبذل جهدًا مضاعفًا لتكون ذلك الابن الصالح الذي يساعد على بقاء ذكراهم وعملهم حيًا، ولتكون أنت الآخر حيًا دون وجودهم بجوارك.
هل تدرك مدى صعوبة الأمر..

أفتح باب الشقة لا أجد سوى فراغ يلتهمني بعنف، صوت القرآن الكريم المنبعث بغرفتهما التي قررت أن أتركها مفتوحة بعد سنوات، يذكرني أن لا أحد يسكنها إلا الملائكة، يالا حظكِ الجيد، صرتِ تعيشين وحيدة دون والد ولا أم، لكن تصاحبك الملائكة..

لا تسألني إن كان هذا امرًا جيدًا أم لا، فمن لا يرغب في صحبة الملائكة؟ لكن من لا يرغب في صحبة أبيه وأمه؟!

- أليست أنانية منكِ الرغبة في بقاء كل منهما في معاناة من المرض، فقط حتى لا تكوني وحدك؟!!
- أكان من الصعب أن يكونوا اصحاء؟!
- العمر سيتقدم ويمرضوا، هذه هي سنة الحياة، ألم يكن سيتألم والدك من بقائك بلا زوج أو أطفال، ابنته الطيبة تفطر قلبه. كم مرة قرأتِها في عينيه إلى أن صرخ بها في وجهك ذات مرة لما تعاظم عليه ألم احتمالها في صدره.
- كان ممكن تكون حياتي عادية، لن أقول سعيدة، بل عادية، أتزوج وأُنجب، ويرى والداي أحفادهما، يهرما سويًا إلى النهاية معًا.
- ألم نتفق أن المختارين حياتهم ليست عادية ...

إلى السماء

أرسل الرسائل ولا انتظر الرد
فقط أُخبرهم أن بعضًا منهم مازال بداخلي
كل الرسائل التي لا يجيبون عليها محفوظة في السماء
تردها إلي في صوت يمامة تسكن إلى جواري
في عصفور كسير الجناح يسقط بشرفتي
في كل فراشة وزهرة تنبت بنافذتي
في عودة صوت حنون كنت أظنه إلى البعد أقرب مني

لقد غيرت عنواني
صرتُ أرسل كل خطاباتي إلى السماء
فتصلني الردود سريعًا
في مرضي .. تأتيني ترانيم الصلاة تداوي الجروح وتخفف الآلام
وإذا اشتهيت طعامًا .. تأتيني دعوة على موائد فاخرة أو طبق مما اشتهي هدية من زوجة حارس العقار
إذا شعرت بالوحشة والوحدة .. يحتضنني صوت يمامة أو طفل صغير لا أعرفه ويربت علي يدي وقلبي مطمئنًا
إذا طالني الأذى .. تنزله السماء علي بردًا وسلامًا مصحوبًا بدعاء ورجاء ألا اظلم أحدًا
لقد غيرت عنواني .. فمن يريد مراسلتي
يوجه الرسالة دعاءً إلى السماء

ستائر

كلما قابلني أحد الجيران يشعر بالدهشة وكأنه تذكّر فجأة وجودي معهم، فيبادرني الجار أو الجارة بتلك الكلمة الاستفهامية المعتادة "فينك؟!!"، مع شهقة صغيرة تنمّ عن التعجب من وجود هذا الكائن بينهم من الأساس. أجيب بابتسامة وكلمات بسيطة أردّ بها التحية، وبداخلي دهشة أكبر من دهشتهم، وأسئلة كثيرة تثير صخبًا يختفي خلف تلك الابتسامة، حول تلك القدرة العجيبة التي تجعلني غير مرئية.

يُشبهني البعض بتابلوه أصيل من أيام الزمن الأنيق، تضعه في غرفة الصالون، تلك التي لا يدخلها أحد، يحافظ عليها أهل المنزل ويضعون فيها كل ما هو ثمين وغال، تُفتح للضيوف المميزين في المناسبات الخاصة، ثم ترتَّب بعناية وتغلَق، وقد تُنسى لفترات طويلة، لا أحد يتذكر التابلو بكل جماله وسحره، قد يسقط بعد أن تذيب السنين خيوطه المعلَّق فيها، ولن يشعروا به.

قررتْ ذات يوم أن أغير من حياتي، أول ما وقع نظري كان على الستائر، هذا القرار مؤجل لأكثر من عامين، لمن ستتغير الستائر وبالكاد يزورني أحد الأقارب في العام مرة أو مرتين، وفي المناسبات يكتفي أغلبهم باتصالات تلفونية إذا تذكّروني، طالني النسيان أنا الأخرى حدّ إصابتي بذات الدهشة عندما يتصل أحدهم.

اتخذت القرار أخيرًا، سأشتري الستائر لنفسي، لأشعر أنا بالتغير، وستكون باللون الأبيض المزين بالنجوم الفضية اللامعة ينير غرفتي مع كل شروق للقمر. بعد بحث طويل وسؤال الأصحاب علمت أن شارع الأزهر هو أنسب الأماكن التي تشتري منها، مع أقل خسائر في المبلغ الذي سيخدعني فيه البائع بالطبع. ذهبت في يومٍ حارّ ألفّ على المحال المختلفة، وخارج كل منها يصيح الصبية "يا مدام .. يا مدام اتفضلي اتفرجي مش لازم تشتري"، كنت لا أُعير انتباهًا لندائهم في البداية، إلى أن لاحظت أنهم ينادونني. تداخل معهم صوت نسائي من بعيد ينادي "يا مدام"، ثم بدأ يقترب مني ويعلو شيئًا فشيئًا، إلى أن سقطت يد ثقيلة على كتفي، إلتفت مذعورة فوجدت سيدة من الشرطة النسائية بالمترو تقول لي "بانادي عليك من الصبح يا مدام يا مدام ومش بتردي!!"، ردّدت "ما أنا مش مدام عشان كدة ما ردتش"، صاحت الشرطية بأعلى صوتها "مش مدام!!!"، تركّزت كل الأعين علي.. حاولت احتواء الموقف ببعضٍ من مرح، وسألت الشرطية عن

سبب مناداتي، فقالت إنني نسيت وضع حقيبتي على سير التفتيش، لكنها ستتركني أذهب، وكأنها تشفق علي لكوني "مش مدام"، أعادني صوت البائع وهو ينادي "يا مدام ...".

اشتريت الستائر التي كنت أبحث عنها، وأنا على يقين أن السعر ليس حقيقيًا رغم الخصم الذي أقنعي به البائع، مؤكدًا مكسبي في كل الأحوال، فإن مللّت من شكلها يمكنني تحوّيلها لفستان زفاف.

فستان زفاف... ظلّت الجملة تراودني سابحة ما بين العقل والقلب، لكني اكتشفت نسيان تأثيرها علي، لم أعد أتأثر بروية القماش الأبيض التل والدانتيل، وأي نوع من التأثير يجب أن يفعله هذا القماش بعقل وقلب الفتاة؟!

ركبت تاكسي وجدته بصعوبة وسط حرارة الجو المتزايدة، كان مكيَّفًا، يسري فيه هواء بارد كنسمات لطيفة تهدّئ من صدمة نسياني. تصاعد صوت أم كلثوم تشدو بأغنية "بعيد عنك حياتي عذاب"، أحب هذه الأغنية بشدة، وأسبح معها في عوالم أخرى، تركت لها نفسي لتذهب حيث تريد. فاجأني قلبي أن ليس هناك مَن أشعر في بُعده بعذاب، أو ربما كان في!! لا أتذكر، لا أتذكر حتى إن كنت أحببّت من قبل أم لا، بالطبع تحركت مشاعري نحو البعض، لكن بالتأكيد لم يكن حبًّا حقيقيًّا، وإلا لم أكن لأنساه. كأن السائق قرأ أفكاري فبدّل الأغنية إلى "أمل حياتي"، تبدو معقولة إلى حدّ ما، على الأقل لا تحمل نفس عذابات الأغنية الأولى، يمكن تصورها في المستقبل، رغم أن ليس له أي ملامح ظاهرة أو قريبة.

وصلت إلى المنزل وتطلعت إلى الستائر القديمة.. ما زالت تحتفظ بجودتها وجمالها. سمعت طرقاً على الباب، وجدت صديقتي الصغيرة "جنى" ابنة الجيران ومعها عروستها الصغيرة، جاءت لنلعب سويًا كالعادة. القماش التل للستائر القديمة أعجبها، فصارت تضعه على رأسها وتمثل أنها عروس، ثم اقترحت علي أن نصنع فستان زفاف لعروستها الصغيرة، وبالفعل صنعت فستانين، أحدهما لجنى والآخر للعروسة. رأتني ذات يوم ابنة جارتي الأخرى فطلبت فستاناً مثل جنى، صارت شغلتي لبعض الوقت حياكة قماش الستائر فساتين لبنات الجيران وعرائسهن الصغيرة، أنسج معها أحلامي الضائعة، فتسمع صوتها يغنّي كلما تحركت الفساتين على الفتيات الصغيرات.

غدًا ستكبر الفتيات وينسينني وفساتينهن الصغيرة، لكن بالتأكيد ستظل أحلامي المنسية بين طيات ذاكرة تلك الفساتين.

ثـروة

كانت الثانية عشرة ظهرًا حين سمعت أصواتًا خافتة على السلم، في الغالب لا أُعير مثلها اهتمامًا، إلا أنني تبينت صوت جاري الطيب عم محمد يعلو بكل ما به من ضعف، مما اضطرني لأنظر من العين السحرية لعله يكون في حاجة للمساعدة.

"عم محمد" من الجيران الطيبين الذين يذكرونك بكل ما هو جميل وأصيل، اعتاد في الأيام الأخيرة أن يطرق بابي على فترات متقاربة، يبادرني بالسؤال عن أحوالي وهو يرتدي ابتسامته البيضاء الدافئة، ويُلح ليقدم إلي أي خدمة أو مساعدة. ودائمًا ما يصاحب سؤاله هدية خاصة من ثلاثة أرغفة من الخبز الساخن الطازج، مصرًا على إعطائي إياهم، وتبوء كل محاولاتي للاعتذار عنهم لوجود ما يكفيني من الخبز الذي أحضره من يومين بالفشل. فقط يوافق أن آخذ ولو رغيفًا واحدًا، ويقول "خدي الرغيف ده اتغدي بيه النهاردة وهو سخن كدة، أو اعملي لك ساندوتش جبنة بيضاء وكوباية شاي، اسمعي كلامي يا بنتي ما تتعبيش قلبي"، أخذ منه الخبز وأعمل بنصيحته. يحمل خبز عم محمد مذاقًا خاصًا، ممزوجًا بكل الود والحنان، أو ربما لأنه الوحيد الذي يسأل عني طوال الوقت دون أن يمل أو يتأخر عن موعده، حاملًا أحب الهدايا لقلبي، فالخبز بالنسبة إليّ يحمل كل معاني الخير والعطاء دون انتظار مقابل.

نظرت من العين السحرية للباب وجدت عم محمد يستند إلى ذراع ابنه، الذي يحمل حقيبة ملابس في اليد الأخرى، ظننت في البداية أنه سيستضيفه عنده بضعة أيام، بخاصة بعد قضائه فترة وحيدًا عقب وفاة زوجته، تلك السيدة التي تغمرك بحنان العالم بأسره بمجرد لفظ اسمك وهي تلقي عليك التحية. لكن تلك الحقيبة مع الكلمات التي التقطها من حوارهما تدل على أنها لن تكون استضافة قصيرة، بل إقامة دائمة. من الطبيعي ألا يُترك هذا الرجل الطيب ليعيش بمفرده، وقد بدأ المرض يأكل جسده بعد ما ألتهم وفاة زوجته روحه وابتسامته. ستتركني لمن يا عم محمد.. من سيطرق عليّ الباب بعد الآن ويُطعمني خبزًا وحنانًا، بالطبع سيلتهمني الجوع ويقضي على جسدي وروحي يومًا بعد يوم أنا الآخرى. كان الجدال بينهما يدور حول "الراديو الصغير"، وقد نسيا إحضاره، فقال له الابن "هاشتري لك واحد غيره"، رد عم محمد "بس ده أصلي من بتاع زمان ...".

قال هذا وهو يبتعد أكثر وأكثر عن الراديو وعن شقته وعني ...

أذلك شعور بالأنانية؟!! أن أرغب في بقائه قريبًا مني رغم حالته الصحية التي تتأخر بشكل ملحوظ، وصعوبة اهتمامي به بمفردي لأن لا صلة بيننا سوى الجيرة، وهي لم تعد كافية هذه الأيام لأهتم به. ذكرني هذا برغبتي في بقاء أبي وأمي وكراهية بل إنكار حقيقة رحيلهما عن العالم، الذي وصل لحد الغضب منهما لتركي بمفردي، فتك ذات المرض بجسدهما ورحلا واحدًا تلو الآخر، البقاء كان يعني مزيدًا من الألم، وهو ثمن مرتفع مقابل ألا أشعر الوحدة.

تعجبت من عدم معرفة الابن أهمية ذلك الراديو الصغير لعم محمد، وصعوبة بل استحالة استبداله بأخر جديد ولو أحدث موديل!! إنه كل ثروته من الحياة والذكريات السعيدة والمؤلمة، هو جزء منه، رفيقه في أيام الوحدة، الشيء الوحيد الذي يتحدث إليه دون أن يمل، بل يحدثه بكل لغة ممكنة تخلق بينهما رابطًا فريدًا في كل وقت وعند كل حال. يستمع إلى موسيقى البرنامج الأوربي، ومسلسل الساعة الثالثة على الشرق الأوسط، يسبقه الصوت المميز لإيناس جوهر وهي تشدو برباعية صلاح جاهين "غمض عينيك وأمشي بخفة ودلع، الدنيا هي الشابة وأنت الجدع، تشوف رشاقة خطوتك تعبدك، لكن أنت لو بصيت لرجليك تقع". في الخامسة يجلس بصحبة كوب شاي في الشرفة بجواره نبتتا النعناع والريحان، يضع ورقة من أيهما في الشاي، ويستمع لافتتاح إذاعة أم كلثوم بأغنية لها. وفي المساء يسهر مع مسرحية عالمية مترجمة بإذاعة البرنامج الثقافي، ليأتي وقت النوم على صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد في إذاعة القرآن الكريم. سيأتي الراديو الجديد بكل هذه الإذاعات، لكن من أين سيأتي برائحة الذكريات التي تجري به مجرى الدم من القلب. ستطغى الرائحة الطازجة الجديدة للبلاستيك والمعدن المصنوع منهما الراديو اللامع، على رائحة البطاريات التي لا تتغير لشهور، ورائحة الأستك المطاطي الملتف به الراديو القديم ليحتفظ بتماسكه، سترحل رائحة ذكرى المكان والزمان مع من رحلوا. كنت أشارك عم محمد بعض هذه اللحظات، بل كنا نتراهن حول أغنية أم كلثوم في الخامسة، ومن يكسب الرهان يأتِ للآخر بهدية، وكان هو من يأتيني بالهدايا دومًا، ويقول لي "هديتي ضحتك الحلوة دي".

أتدري أنني ما زلت أحتفظ بالراديو الخاص بأمي، كانت كل ثروتها مصباح سهاري صغير، كيس نقود صغير لكن به ما يكفي ليشتري به جميع الصغار حلوى، ويشتري الكبار ما يلزم لشاي العصاري ولمتهم حولها للمغربية، وشريطي أسبرين "ريفو" للصداع الذي كان يزورها يوميًا دون شفقة، مازال كيس النقود للآن ممتلئًا بالعملات القديمة. وذلك الراديو الصغير ينطلق منه صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد صباحًا، ومساءً، يستريح فقط ساعات الظهيرة، لكنه صار منهكًا بشدة، لا تفلح معه أي محاولات للإصلاح، قطع

غيار أجزائه لم تعد تنتج الآن، أضعه بجوار الهاتف المحمول الذي استخدمه بديلًا عنه. لعل هذا يُصرف ذهني كثيرًا عن التساؤل والانشغال بمن يتصل بي أو من لا يتصل، لا يهم، فأنا على تواصل دائم مع رفيق لا يمل، يحدثني بما أريد وقتما أريد، وبجواره تتوهج رائحة الاستك المطاطي القديم.

أظنني استأثرت بكل هذه الثروة لي وحدي ..

ساعة العصاري

يا لهذا الشعور بالخوف والخواء الذي يلازمني كلما اقتربت مناسبة لها طقوس خاصة كالأعياد، وشهر رمضان، شهر كامل أتدري مدى شدة الخوف وزمنه الطويل، ليس يومين أو ثلاثة أو أربعة بل ثلاثين يومًا، يعقبه يوم لصلاة العيد، ثلاثة أيام من الفراغ الدامس المخيف قلبي يكاد يقف نبضه.

أحيانا أرغب في ممارسة ما كنا عليه، أعيش حياة طبيعية، كأن أطهو طعامًا مميزًا في المناسبات الخاصة، التي نطلق عليها مواسم. مثلا في وقفة عرفة أو يوم عاشوراء، حيث اعتادت أمي بعد ما تيسر بنا الحال أن تطهو أوزة كبيرة وفتة ومحشي ورقاق غارق في السمن والزبد البلدي، بجانب حلوى اللبن بالقمح، والتي نطلق عليها عاشوراء، كطقس مصري متأصل من الجدود. ورغم عدم ميلي للأطعمة الفاخرة كالبط أو الأوز أو الحمام، لكن من وقت للآخر اشتاق لتذوقه، فأقوم بطهي رقاق أو فتة بيضاء، تلك التي نصنعها من الدقيق واللبن والخبز، ونطلق علبها فتة كشك، واشتري بطة، أقسمها أربعة أجزاء، وأطهو جزء منها، وهذا يكفيني ويزيد، تملأ رائحة الطعام المنزل، ما زلت أحتفظ بمهارتي في الطهو، وبعض من نفس أمي المميز. يصير كل شيء جاهزًا، إلا أنا، لم تعد لدي رغبة في تناول الطعام، وإذا ضغطت على نفسي وتناولته، لا اشعر بشيء مما أخذني حنيني إليه، لكنني أنظر إليه بامتنان وشكر وحمد كبير أجاهر به، أن لدي كل هذا، حتى لو أفسدته الوحدة.

اعتادت أختي الكبيرة دعوتي في هذه المواسم لتناول ما لذ وطاب، وكنت أتناول طعامها بشغف، فكل منا ورثت مهارة الطهي من أمي بنفس خاص بها. لكنها توقفت عن دعوتي من وقت بعيد لا اتذكره، ربما لأنني من توقف أولًا عن قبول الدعوات، متذرعة بأسبابٍ واهية غير حقيقية، لأن الحقيقة جارحة لكلانا، فلن تتقبل فكرة أنها تعاملني بجفاء حاد. إلا أنها تحرص على دعوتي أول يوم بشهر رمضان كل عام، وتعتبرها دعوة مقدسة غير قابلة للرفض، وأظنها كانت صادقة في البداية، لكنها تحولت إلى عادة، ومنها إلى ضرورة تفرضها الظروف وتندرج تحت مسمى "ميصحش تفطري لوحدك أول يوم". أدى هذا الاعتياد إلى تحول معنى الطعام من صحبة طيبة ومشاركة مفعمة بالمشاعر، إلى مجرد فعل للإطعام فقط، وحفاظًا على المشهد العام أمام من يسأل من العائلة. والغريب اختلاف المعنى الكامن خلف الطعام بل وتبدله تمامًا بين ما كانت تفعله أمي، وما تفعله أختي، فمعها تحول الأمر إلى مجرد لقيمات نتناولها، يمكن استبدالها بما هو أقل منها بكثير سواء في الكم أو التنوع، ولو كسرة خبز وماء بمفردي، لكن بروح

هادئة يشملها السكن والراحة، مما افقدني الرغبة في الذهاب إلى منزلها، بعدما كان ملجئي ومنبع متجدد للشعور ببعض من الونس. وهكذا تسربت من بين روحي اللحظات المهمة الواحدة تلو الأخرى، إلى أن صارت الوحدة ونسي الأوحد.

لازمتني في الفترة الأخيرة عادة أتمنى المداومة عليها، أظنها لم تكن تزورني لو لم أمر بما مررتُ به، وربما لأنني تخليت عن الخجل المعهود تحت زعم أن الجميع ينظر إليّ، ولعل هذا يحدث أحيانًا، لكنني لم أعد أبال. وإن كنت أتعمد ارتداء ملابس فضفاضة للغاية، وخالية إلى حد كبير من الأناقة، بل تكون بسيطة ومرتبة، وبالطبع حذاء المشي الذي ارتديه يكون خاليًا تمامًا من أي شياكة أو جمال، وهذا بالتحديد خارج عن إراداتي، بل لوجود مشكلة بقدمي تؤرقني عند اختيار الأحذية. بمعنى آخر أحاول قدر المستطاع أن لا ألفت نظر أحد، لأنعم ببعض الخصوصية، والراحة في هذه العادة التي صارت تأخذ مني مأخذ الجد. اعتدت السير في فترة ما بعد الرابعة عصرًا حيث يكون الهواء الساخن في مرحلة الوداع، وتبدأ بوادر هواء العصاري، وبالطبع هذا في أي فصل بخلاف الصيف. فأنا عدوة للشمس والحرارة، ومن محبي بل عاشقي فصل الشتاء، والخريف، حيث كل ما هو بارد ومنعش، رغم ضعف مناعتي واصابتي المتكررة بنزلات البرد، لكني كذلك مصابة بالحساسية ضد الحرارة والشمس، وقد تأخرت حالتي بشكل سريع وقوي، إذ يصاب جلدي بالحكة والحمرة الشديدة، في تلك الدقائق القليلة التي أروي فيها نبتاتي.

بدأت بالسير في محيط منزلي، وقد كنت هجرته لسنوات عدة قد تصل إلى عشر أو خمس عشرة سنة، حيث كنت أكتفي بالخروج لأول الشارع الذي أسكن به لاستقل سيارة أجرة، أو المواصلات العامة والمترو، لكنني لم أعد أدخل إلى الأماكن التي لي بكل ركن بها ذكريات لا تُنسى. هذا عم عبده صاحب محل الطعمية (الفلافل)، مازال محله كما هو لم يتغير، وهو الآخر لم يغير من مذاق الطعمية الفريد المشتهر به في المنطقة، رغم تواضع محله لأقل مستوى ممكن، لكن لا يوجد من يضاهيه في الصنعة. وهذا هو منزلنا الصغير القديم، ولم يتبق من الجيران القدامى، سوى سيدة مسنة وابنها وبنتها وأحفادهما، ذلك السُلم الصغير، كيف كان يتسع لكل أطفال العمارة المكونة من خمسة طوابق؟! ألقي نظرة على شرفة شقتنا وقد سكنها آخرون من زمن، وبدلوا كل شيء، أغلقوها بزجاج عاكس للضوء بلون بني شفاف، كيف كانت هذه الشرفة الصغيرة تتسع لأمي ولنا نجلس لنشرب الشاي على صوت الراديو، وفي صحبة هدهد لم يخلف موعده معنا يومًا، حتى عندما تزوج، كان يأتي برفيقته ليشاركنا شاي الساعة الخامسة، وقت العصاري. وبعد أن يبدأ الغسق، ويطل الليل على استحياء، تأخذنا أمي في جولة للمكان واستكشاف المحال الجديدة، ولا

يمكن ألا نعرج على عم محمود صاحب محل عصير القصب، لنرتوي مما رزقنا الله شرابًا طيبًا، وفي النهاية نشتري الفطير بالقشطة والسكر، ليكن لوالدي نصيبًا من فسحتنا الصغيرة الغنية. لكن كل شيء تغير، فقد أغلق محل الفطير وعصير القصب، ولاحظت أن عم عبده محله مغلق، وضعوا بعد أيام ورقة تعلن وفاته. أخذت معك الكثير من الذكريات والأيام العذبة يا عم عبده، غدًا سيشتري أحدهم محلك الذي يأخذ موقعًا مميزًا من الشارع، ليشبه أغلب الشوارع الآن وقد التهمتها محال الملابس، والسلع الصغيرة تافهة الثمن سريعة العطب. الغريب أن المحال صارت تحمل أسماء ملتصق بها صفات، كجزارة حلال، أو خضري الأمانة، وكأنهم يؤكدون على ما لا يجب التأكيد عليه، على ما يجب أن يكون، المُثير للدهشة أن تلك المحلات بالتحديد هي ما حذرتني جارتي من الشراء منها، لأن الجزار يغش في الميزان، وذلك الخضري يبيع أغلى من الأسعار الأصلية على الأقل بخمسة جنيهات للسلعة الواحدة.

ها أنا أمر على مكان أحد زملائي في الجامعة، وصادف أنني وأغلب الزملاء نقطن ذات المنطقة تقريبًا تفصلنا شوارع صغيرة، بل صادف أن أغلبهم كان يعرفني في وقت الثانوية العامة، وكانوا يطلقون عليّ "مادونا"، تيمنًا بتلك المغنية المشهورة، لاقتراب هيئتي المائلة للشقراوات منها وقتها. وعندما التقينا في الجامعة، تعجبوا من تبدل شكلي لأنني كنت مهملة في مظهري لأقصى حد، وكيف لا أكون وهذا هو العام الذي فقدنا فيه أمي ...

في طريقي للعودة للمنزل قابلت صديقتي الحاجة فاطمة بائعة الأواني الفخارية، تمتلك حجرة صغيرة على أول شارعنا، تنزل إليها بدرجات حجرية متآكلة، بها موقد جاز قديم وعتيق من عمرها، وسرير يناسب حجمها الضئيل يعلوه مرتبة تحول لونها إلى الأصفر. الضوء الخافت للمصباح الوحيد بالغرفة لا يزعجها كثيرًا، فنظرها في ضعف وتآكل مستمر يتماشى مع تضاؤل سنوات عمرها المحفورة كأخاديد في وجهها الطيب الصبوح. كل يوم ترص بضاعتها، لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة على قفص قديم، وتنتظر ما ينعم عليها الرب على أيدي العباد. تعرفني من صوتي، فتقترب مني وتضمني بقوة تتنافى مع ضعفها، تهمس في أذني أن بالأمس سرق أحدهم كيس مناديل، لكنها تسامحه، تضغط على يدي بقوة وتسألني بصوتها المرتعش "أنتي كويسة"!، تنتابني رغبة قوية في البكاء في ذلك الحضن الذي يذكرني بجدتي، نفس الجلباب الأسود يحمل كل الحنية والطيبة بين ضفتيه، أخشى على قلبها الرقيق من الحزن، فأجيبها "الحمد لله."

تمر جارتي علينا، وتمطرني بأحاديث عن حريق غابات الأمازون، والتجربة النووية الفاشلة لروسيا، أرد بكلمات عابرة عاجلة، راغبة في العودة للحاجة فاطمة، تتفهم جارتي وتمضي لحالها. تشد يدي بكل ضعف، تخبرني أن ابنها الكبير يرغب في أن يأخذ حجرتها، ويبيعها لشخص ما يحولها لمحل، وابنها الصغير احترق منزله، لأن زوجته في ذلك البلد الريفي تشعل موقدًا ليلًا ليشعروا ببعض من دفء. تخاف من أن يستقوى عليها الأبناء، تخافهم أكثر من الموت، ومن ذلك الحرامي الذي سرق كيس المناديل، وتسألني "في ايه مصيبة في العالم أكبر من كدة!!" ...

أتحدث إلى العصافير وأهتم بزراعة بذور الفاكهة والخضروات والزهور واستمتع برؤيتها تنمو أمامي كطفل صغير لم أحظ به قط. أتنقل بحرية بين الأماكن، أسافر هنا وهناك وأعيد تشكيل علاقتي بالطبيعة وبالأرض من جديد، أتعرف على الأشياء المعتادة كأنني أراها لأول مرة. تبدو حياتي رائعة بالفعل، بكل ما بها من هدوء وبُعد.. بُعد عن كل شيء، حتى عن نفسي وأفكاري. ما أفعله كغريق أنني اتمسك بكل قشة، أصنع منها منزلًا تارة، وتارة أخرى شجرة، أو سفينة دون مرسى، ألملم قشة على قشة وأصنع دمية أتحدث إليها.

لدي الكثير، رغم أن ليس لدي شيء، وحيدة كشجرة في الخريف على مفرق طريق ...

إلى خبراء التجميل
لا يوجد معي نقود تكفي لشراء مساحيق التجميل
لكني أتناول الفراولة والكرز بانتظام
وأشرب موز باللبن
وتحني الشمس شعري كل يوم مرتين عند الشروق والغروب
وتكتحل عيني بلون الليل بينما انتظر القمر
وصوت الكروان عالق بأذني كحبة ياقوت حمراء
ماذا احتاج بعد ..

على من سيطلع الفجر

كيف يخلق أبي كل هذه العوالم، ويعد واحدًا منهم فقط بالفجر، ومعروف عنه العدل والسماحة والغفران، فكيف يعاقب أحدًا على ما اختاره له بنفسه منذ ولادته كما يخبروننا الكبار العارفين به!! هذا غير أنك إذا نظرت إلى العالم المختار للنهاية الأبدية السعيدة، لن تتردد لحظة واحدة في الابتعاد عنه، حيث تنعدم الأخلاق، وتحل محلها الأكاذيب والتظاهر بالجمال، كل ما يظهر من ساكنيه هو القبح بعينه، بينما العوالم المغضوب عليها والضالة، تتمتع بكل الصفات التي تمنحها السعادة الأبدية. وهذا يضيق عليك الخناق بسؤال آخر بلا إجابة، كيف يترك الأب عالمه المفضل وسط كل هذا الضياع والفساد، بل واستغلاله لصلته بالأب للترويج لمزيد ومزيد من الانحلال والمتاجرة بأحلام وآمال الآخر، ليعده بالسعادة، رغم كل ما يحيط به من فقر، وعوز، وحاجة تجعله يمد يده للعوالم المغضوب عليها، ويصير تحت رحمتها تمامًا للدرجة التي يستبدل رضاها ورحمتها برحمة الأب.

كيف لأبي الكبير ترك عالمه المفضل يضيع، يمد له بين الحين والآخر يدًا للإنقاذ، ثم يتركه فجأة ليسقط في غياهب قاع أكثر عمقًا وظلامًا من ذي قبل؟!

أسئلة لن تخرج إجابتها عن شيئين، الأول أن العالم المختار ضلّ طريقه، وكفر بكل النعم التي أنعمها عليه الأب، وكانت هذه النتيجة الحتمية لما فعله بنفسه، هذا اختياره، أكاد أتفق تمامًا وأوافق على هذه الإجابة، ولو لم يوجد اختيار، لما وجد الوعد بالسعادة وبزوغ الفجر، وإلا كيف سنعاقب على ما لم نختر!! لكن يبقى تساؤل بسيط عن أن حياتنا مكتوبة من قبل الميلاد بكل التفاصيل، بل من خلال تجربتي التي لم أختر فيها شيئًا، فلا أظن أنني أفهم كيف تسير عملية الاختيار من الأساس، الإجابة الثانية هي أنه من المفترض ألا نسأل من الأساس.

احتفظ لنفسي برأي ثالث، أو رسالة امتنان حقيقية أنني انتمي للعالم المفضل، رغم كل ما يثيره من ضجة وعنف وسمعة غير طيبة، ربما أتفق أنه تمادى في تجاهل كل التعاليم التي كانت ستمنحه السعادة.

الساعة الحادية عشر صباحًا من يوم الجمعة، قابلت أحمد حاملًا صينية عليها كوبا شاي، وكوب كبير فارغ، يقف عند محل درينكز القريب بخطوات من كنيسة الكاتدرائية بالعباسية، يشتري زجاجتين من البيرة. يعود إلى الزبون الجالس بالقهوة أول شارع أحمد سعيد، يضعهم أمامه، ويكمل عمله بعينين نصف

مغمضتين، وجسد لم يستيقظ بعد من النوم والتعب، وصمت دائم. دقائق وبدأت مراسم صلاة الجمعة تملأ المكان، إمام المسجد بجوارهم ينادي على السيارات لتفسح الطريق لفرش سجاجيد الصلاة. يستأذن أحمد ذو السنوات الثانية عشرة صاحب القهوة للذهاب للصلاة.

يستمع للإمام وهو يصيح بأعلى صوته "شاربها وحاملها وجالسها في النار".. يرتجف أحمد ويتعجل انتهاء الصلاة، يهرول للإمام:

- يا عم الشيخ أنا باشتغل في القهوة اللي على الناصية، والزباين بتخليني اشتري لها بيرة وخمرة، صاحب القهوة مش بيبع الحاجات دي عشان حرام، لكن لو رفضت اشتريها للزباين بيضربني ويزعق لي، ويهددني بإنه هيقطع عيشي، وأبويا لو سبت الشغل هيضربني، مسرحني أنا وإخوتي، أعمل ايه؟؟
- حاول تقنعهم يا ابني أو دور على شغل تاني؟؟
- يا عم الشيخ أنت عارف الحالة، مفيش شغل تاني، وبعدين لما هي حرام أوي كدة، اللي فجروا جوا الكنيسة، مفجروش محل الخمرة ليه اللي قبلها بكام خطوة؟
- معنديش غير اللي قلته، وسع بقى عشان الناس التانية.

خرج أحمد من المسجد لا يعلم كيف سيستمر في الصلاة ويعمل فيما يغضب الرب طوال اليوم، حاول أن يقنع والده بترك عمله، نهره، ضربه، وأجبره على العودة. حاول التحدث مع صاحب المقهى كي لا يحمل هذه المشروبات، لكنه رفض وهدده بالطرد، ذهب إلى الميكانيكي وطلب منه عمل، وذهب للنجار، ومحل البقالة، لا يوجد عمل...

أخبرني أنه كف عن الذهاب للمسجد، لم يعد يطيق رؤية الإمام، الشخص الوحيد الذي ظن أنه سيساعده تخلى عنه، كان يبكي كثيرًا في الصلاة ويشعر بالخجل أمام الله. مازال يحمل زجاجات البيرة، والعمل يزداد في أوقات بطولات كرة القدم، توقف عن الصلاة، لانشغاله الدائم.

وقال لي أخيرًا "ايه الفايدة مادام ربنا غضبان عليا طول اليوم"..

كنتُ أسير حاملة أكياس تفوق طاقتي، ويبدو أن التعب والإنهاك قد أخذا مني مأخذ الجد، وانطبع ذلك على وجهي ألمًا يوحي بثقل ما أحمله، سمعت صوت صغير بجانبي "أشيل عن حضرتك الشنط"، التفت، وجدت طفلًا في الحادية عشر على الأكثر، ألوان ملابسه متوارية خلف بقع شحم وزيت السيارات. ابتسمت له وشكرته وسألته على اسمه، قال "ريمون"، يعمل جديدًا مع الميكانيكي على أول الشارع، نسيت ما أحمله من أثقال وأنا أدقق النظر في هذا الوجه الصغير، والعينين البريئتين، وهو يروي لي كيف ترك المدرسة، ليساعد عائلته لتوفير أقل متطلبات الحياة من طعام وعلاج، وإن أمكن في الحالات الضرورية قطع ملابس زهيدة، صوت صاحب العمل أعادني وريمون إلى الواقع الذي غرقنا فيه أكثر مما نتحمل. صرنا أصدقاء من ذلك اليوم أنا أحمل له الحلوى، وهو يهديني ابتسامة أحلى من الحلوى، ممتلئة بالشكر والامتنان، لا على شيء، إلا أنه يتذكر حينها طفولته المنسية خلف عوادم السيارات.

صعدت إلى شقتي مثقلة بالأحمال، ولا أدري أهي من أكياس الخضار والبقالة، أم من بقايا نظرات ريمون، ما لبثت أخفف من ملابسي، حتى رن الجرس بقوة، هرعت منزعجة لأفتح، ومع تكرار الدق على الجرس، وارتباكي في ارتداء ملابسي ثانية، وأنا أصيح "حاضر.. حاضر"، وجدت جارتي ماري. ابتسمت لي معتذرة عن تعجلها ودقها للجرس بهذه الطريقة، حاولت تهدئة نفسي بعد هذه الثواني المقلقة، وجاهدت لأبتسم وأنا أعفيها من الحرج. ماري هي وأستاذ سامي جيراننا في العمارة المكونة من سبعة طوابق، الحياة تسير بشكل عادي، لكنها دومًا ما تشعر بالاضطهاد، وأن الجميع يتربص بها لاختلافها في الديانة، لم يشكِ أستاذ سامي قط من هذا الموضوع. أدى شعورها هذا بتوترها الدائم مع الجميع، رغم ما يبدو عليها من هدوء، علاقتنا جميعًا في العمارة شبه سطحية للغاية، فقط نتبادل التحية لو تقابل أيّ منا مع الآخر صدفة على درجات السلم، قد يدور بيننا حوار عندما تتجاوز فواتير المياه والكهرباء الحد، أو يحتاج شيء إلى إصلاح. توتر ماري الدائم جعلها لا تستقبل أي شيء دون مروره على خانة الاضطهاد والتمييز، صارت علاقتها بالجميع عدائية، وفي أقرب موقف شهدته لشجار بينها وبين جارتي بجانبي، وهي شقتها أسفل شقة ماري، وقد حدث تسريب للمياه، بعد جدال واسع اتضح أن المشكلة مشتركة بينهما، وعليهما معًا الاشتراك لإصلاح أنابيب المياه. تعامل ماري كان عدوانيًا لحد الصراخ في الجميع حتى زوجها، تعجبت من صبر جارتي حادة الطباع عليها وحمدت الله أن الأمور لم تتفاقم، يومها أرسلت إلي رسالة على الهاتف بتوسيطي في أية تعاملات تتطلبها أعمال الصيانة في العمارة، لأنني الوحيدة التي تتحدث إليها. قبلها بشهر تقريبًا كانت تشاجرت مع البواب، وقالت لي أن هذا بتحريض من أحد السكان، وأن خطاباتها يتم فتحها والتلصص عليها، حاولت جاهدة أقول لها وأفهمها أنني اتعرض لمشاكل أكبر

ومحاولة انتهاك خصوصية ومضايقات، إلا أنها لم تقتنع، قالت لي ذات مرة إن هذه الخلافات المستمرة ستخلق فتنة طائفية في العمارة، نظرت إليها فاغرة فمي من الدهشة، إذن فالذي أعاني منه بسبب وجودي بمفردي ماذا سنطلق عليه!!

لسبب ما ماري كانت تستريح إلى وتعتبرني الجارة الوحيدة القريبة منها، تتعامل معي بلطف بالغ ومودة، وكلما دقت علي الباب لتعطيني ما دفعت لها من نقود للكهرباء أو المياه أو أي شيء، يجب أن تعطيني معه شيئًا، قد يكون رغيف خبز ساخن على غرار عم محمد، أو حبات من الطماطم والخيار، تعطيني أي شيء مما تحمله معها.

ذكرتني ماري بصديق أوكراني قابلته أثناء سفري لمنحة دراسية لمدة شهر في ألمانيا بهامبورج، مدينة الأغنياء كما يطلقون عليها، كم كانت البلد نظيفة لامعة كعادة البلاد الأجنبية. تشاركنا السكن وصديقة ثالثة من روسيا في نُزل مكون من تسعة طوابق، بكل طابق أربع شقق صغيرة مرتبة بعناية ومنظمة. واجهت مشاكل عنصرية أخافتني رغم شجاعتي إلى حد ما، كان ذلك بسبب ملابسي وهيئتي التي تميز وتُصرح بهويتي الدينية والعرقية، وصلت المشاكل حد خوفي السير في الشارع لأصل لمكان الدراسة القريبة من النُزل الذي كنا نسكن فيه، حتى مكان الدراسة وجدت به تمييز وعنصرية. لم يوجد أي شيء مشترك بيني وبين هذا الصديق الأوكراني، لا لغة ولا عرق ولا دين، كنا نتواصل بكلمات انجليزية بسيطة وأغلب الأوقات بالإشارات، لكن المعنى كان يصل، كنت أبحث عن سوبر ماركت قريب لشراء بعض المستلزمات، سار معي ليدلني على الطريق، ولم يتركني إلى أن عدنا للنزل خشية أن أضل الطريق، كان يتعامل بكل لطف وطيبة. منحني شعورًا جميلًا بالأخوة، من خلال بعض لفتات بسيطة، كالخوف عليّ من السير في أماكن يضايقني فيها أحد، أو إصراره على توصيلي لباب النزل أو مكان العمل، كان شخصًا طيبًا في مظهره وباطنه. اضطر للسفر فجأة، علمت فيما بعد من صديقتنا الروسية التي كانت لا تقل عنه طيبة ولطف، أن والدته قد تُوفيت. أرسلت له رسالة حاولت ترجمتها للروسية لتعزيته في هذه الصاعقة، أجاب بعد فترة بالإنجليزية والتي كانت لغة شاقة عليه، ليروي لي كيف كان ارتباطه بها، وصدمته لوفاتها وهو بعيد عنها، وصرح لي أنه كان يبكي طوال الوقت، رغم كل محاولات إخوته وزوجته لتهدئته، بأنها رحلت راضية عنه.

شعرت وصديقتنا الروسية بكل الأسى عليه، وحاولت أن تمنحني بعض الوقت هي الأخرى، رغم تواجدها بصحبة ابنتها الصغيرة وزوجها، وانتقالها من الشقة الصغيرة المجاورة لي، إلى الشقة التي يقيما فيها، لكن من وقت للآخر كانت تطمئن علي، وتدلني على مواعيد سوق الخضروات والفاكهة الذي يقام بالقرب من النزل كل أسبوع. ذات يوم فاجأتنا المشرفة على المنحة الدراسية باجتماع لكل العاملين وأصحاب المنح، وكان الجو حارًا، ونظرًا للعادة الروسية المرتبطة بالبرودة الشديدة كانت أغلب ملابس صديقتي سترات قطيفية ثقيلة، تخلعها عندما لا يوجد أحد سواي وإياها. كانت غرفة الاجتماعات في الطابق الأول، مستديرة تحوطها الأشجار من كل جانب، تطل من نوافذها الزجاجية التي لا يفتح منها إلا القليل، أبت أن تخلع سترتها رغم شعورها بشدة الحرارة مع ثقل ملابسها، مُعللة ذلك بأنه غير لائق ولا يجوز أن تحضر الاجتماع ببلوزتها الخفيفة عارية الأكمام التي ترتديها تحت السترة الثقيلة.

أرأيت .. فالمشاعر لا تتجزأ أو تختلف باختلاف اللغات والديانات، والأخلاق كذلك، إذن على مَن مِن هؤلاء سيطلع الفجر؟!!

- نعم الأخلاق والمشاعر مفطور عليها كل البشر، كل الكائنات تسبح وتتعبد ناطقة بلغات كونية متباينة، لكن عندما تضفي على هذه المشاعر والأخلاق صفة الطاعة والعبادة لخالق واحد، ولرب واحد، يمنحها صفة القدسية والنور، ذلك النور الذي ننتظره مع أول بزوغ للفجر.
- إذن فما مصير هؤلاء؟!!
- أنتِ لم تُخلقي للسؤال عن مصائر الآخرين، فحكمهم لمن خلقهم، وليس عليكِ إلا الانشغال بنفسك، وكيف سيكون فجرك الذي تنتظريه، هكذا كان العقد .. كل فرد مسئول عن ذاته، ولا يسأل أو يُسأل عن الآخر.

عابر سبيل

كان عليّ أن أترك الباب مواربًا قليلًا
فلا يظن العائد أنني رحلت
لعلي أهديه شربة ماء كعابر سبيل
أو كسرة خبز تجيره من صحراء الحياة
وعندما أطرق الباب ثانية
لستُ بعائدة
فقط كعابر سبيل اعتاد الرحيل
أُلقي السلام على من شغفوا القلب يومًا
وتلك القلوب التي حلقت بعيدًا عنك
ستزورك يومًا على هيئة دعاء

انتهت الخلوة التي وضعني فيها أبي الكبير بذات اليسر والدهشة التي بدأت بهما، ففي أيامٍ معدودات عادت أختي الكبرى للحديث معي بود وكأن شيئًا لم يكن. ومع أول أيام رمضان، وكما اعتدت إرسال رسائل للحفاظ على صلة الرحم مع أقاربي –ومنهم أخي– دون انتظار رد، فلم يكن يرد بعضهم وهو ضمنهم، لكن هذه المرة رد، بل وأخبر أختي الكبرى برغبته في إعادة ما تقطعت أوصاله بيننا، وهكذا عدنا وعادت المياه تغذي نبتات الود، وسرت الدماء بين الأرحام من جديد تبقيها على قيد الحياة.

أرجو ألا تتهمني بالمبالغة وعدم إضفاء حبكة جيدة على قصتي وإخوتي، أو أنني تعجلت بالنهاية، بل ذلك ما حدث بالفعل، فالحياة أشد غرابة ودهشة من خيال كل المؤلفين، تفاجأك بالأحداث وما تؤل إليه، ولا يمكنك إلا أن تسير فيما يُقدر لك، محاولًا تجاهل كل المنطقي والمعقول، فهذه ليست مجرد قصة، بل حياتك كاملة.

ما أدهشني ليس فقط ما آلت إليه الأمور ببساطة وسلاسة، بل ما تم محوه بداخلي من ضيق وغضب وشعور بالجفاء، كيف وأين ذهبت كل هذه المشاعر التي كانت تقتلني يومًا تلو الآخر!! أهكذا تنتهي

الأمور بمثل هذه البساطة؟؟!! إذن فلماذا حدثت من الأساس، لم أكن من أزال كل هذا الألم من داخلي بهذه البراعة والتفرد، هذا ليس بفعل إنساني، فالبشر وظيفتهم البغض والمحبة لكن محو الأثر، وإبدال القلوب!! غير ممكن..

ظللت بعد ما تحسنت الأحوال مع إخوتي في حيرة وحالة من عدم الاتزان لفترة ليست بالقصيرة، بسبب عدم الفهم، ولا استيعاب الأمر، هل عدنا بحق؟!! تُجيبني اتصالات أخي المستمرة، والذي كان التواصل معه محذورًا ومستحيلًا لحد أكده كل من حولنا. نعم عدنا.. عدنا كما يولد الطفل بكل براءته ونقائه، كمن لا ذنب له، عدنا كبداية الخلق، طيبًا نقيًا، بكامل هدوئه ورصانته.

أفسح هذا كله المجال لذات السؤال المكون من كلمة واحدة "لماذا؟؟!"

لم أعد مثلما كنت، ربما صرت أقوى، أو توقعاتي صارت أقل من أي علاقة مع الأقارب والأغراب على حد سواء، كففت عن الانتظار، صرتُ أُفضل وأحاول العطاء فقط للعطاء، وأنا على يقين بأن أحدًا ما في مكانٍ ما سيمنحني جزءًا من عطائه، وهذا بالفعل حدث ويحدث ومازال مستمرًا، فكم من المرات وجدت فيها كلمات حانية تربت على روحي المنهزمة، وتجبر كسر قلبي، من غريب لا تربطنا أي معرفة. لم أعد أنزعج من ضياع ما تيسر لي من أمنيات زهيدة، بل من تأجلها لوقت يكون قد أختفى شغفي بها، وانعدمت رغبتي لحد يجعلني أقرب لرفضها، اختفت تلك الابتسامة التي تلازم حدوثها. كأن تكون ذاهبًا إلى موعد ترغبه، ارتديت ملابسك، تعمدت أن تستريح طوال اليوم لتبدو رائعًا، تنظر في المرآة بكل الرضا عن هيئتك من الداخل والخارج، فجأة يرن الهاتف، يأتيك صوت يعتذر عن الموعد لحدوث ظرف طارئ. يؤجله للغد، لم يلغه تمامًا، لكنك فقدت شيئًا ما في خضم هذه الكلمات، لم تعد أنت، ستذهب في اليوم التالي، وقد تركت جزءًا منك عالقًا في اللامبالاة، فلتحقق أمنيتك أو لا، لم تعد تبالي. لقد تعبت من كل نوبات العطش التي تداهمك، فتأتيك قطرات مياه باردة، مجرد النظر إليها يروي، لكن قبل أن تلمس شفاهك تختفي، لتختبر نوعًا جديدًا من العطش في كل لحظة، تتعود ألا تصل لحد الارتواء تكتفي بقطرات من الماء تبقيك على قيد الحياة، لأن ببساطة هذه هي الحياة، وبتعبير أدق، هذه هي حياتك.

صرت أتجنب صنع الألم أو أكون سببًا له لأي مخلوق بقصد، أو بغير قصد إذا استطعت، لأنني خبرته، وأعلم جيدًا كيف يقتلنا ويتركنا أحياء ممزقين الأوصال، نُجبر أنفسنا على الابتسام وبداخلنا ينزف.

صرت ممتنة وشاكرة لما مر بي، لأنه لم يقتل روحي ويحول قلبي لحجارة أو أشد قسوة، فهكذا تفعل الأزمات بالإنسان، تقتله ولا تُعيده للحياة، فينقل آلامه للآخرين بقتل أرواحهم ليصيروا كما هو، أو يقضي حياته ينتقم ممن بادروا بقتل روحه.

تعودت الاستغناء والزهد عن حق، ليس عن اضطرار، ولم أكن لأصل لهذه الفضيلة التي تجعلني بمأمن من مغريات الدنيا لولا هذه الخلوة التي منحني إياها أبي الكبير. لم أكن لأجرؤ أو أختار البُعد عما تبقى لي من حلم متواضع، بأن إخوتي هم كل عائلتي الكبيرة وأسرتي الصغيرة، وأطفالهم هم أطفالي الذين لم أنجبهم، وقد كان هذا الأمل يبتعد يومًا بعد يوم إلى أنه لم يعد حلم من الأساس. كان يجب أن أتعلم بالطريقة الأصعب في الوجود، وأبي الكبير يعرفني أكثر مما أعرف نفسي، فعندما كنت أصل إلى حافة الانهيار التام، والموت عطشًا وسط صحراء الوحدة القاحلة، كان يرسل إلي بحبات من مطر، وهو يعلم أنها فقط لن ترويني، بل ستُعيد إليّ جزء من روحي التي فقدتها كلما ضللت الطريق.

وسط كل المتشككين في بزوغ الفجر أو عدمه، فما لقيته في هذه الخلوة، يؤكد أننا لا نسبح بمفردنا، وإن ظننا أننا نسبح ضد التيار، وقد يكون هذا لحثنا على أن نكون نحن التيار، كما يقول "جلال الدين الرومي"، ولن يمكن أن تتأتى لنا هذه القدرة، دون أن نغرق مرة واثنتين وعشر، لا لنتعلم السباحة فقط، بل لنتعلم كيف نستوعب ونتفهم أفكار أمواج الحياة، ما بين علوٍ وسقوط، وندرك ما بينهما...

الفصل قبل الأخير

سأظل في طاعة الأب حتى مطلع الفجر ...

الفصل الأخير

الفجر ..

الفهـــرس

١. سيسألنا الله عن الحب الذى وضعناه في أعمالنا
٢. عوالم أخرى
٣. العـــقد
٤. اختيـــــار
٥. البنت بيضا
٦. الوسيط
٧. الصوفية
٨. حياة بطعم الرحيل
٩. إليهما أينما كانوا
١٠. خلـــوة
١١. في معنى الخوف مدى الحياة
١٢. دور برد
١٣. وحـــدة
١٤. الجنــون
١٥. السن
١٦. لماذا!!
١٧. في حضرة الملائكة
١٨. إلى السماء
١٩. ستائر
٢٠. ثروة
٢١. ساعة العصاري
٢٢. على من سيطلع الفجر
٢٣. عابر سبيل
٢٤. الفصل قبل الأخير
٢٥. الفصل الأخير